مقالات إسلامية



الدكتور عماد الدين خليل

دار ابن كثير



(١١)

مقالات إسلامية

كتابات إسلامية

تصوير

أحمد ياسين

تأليف

د. عماد الدين خليل


بسم الله الرحمن الرحيم



المقدمة

يحتوي الكتاب الذي بين يدي القارئ مجموعات شتى من المعطيات، امتد زمن كتابتها منذ منتصف الستينيات وحتى نهاية السبعينيات. تتضمن أولاها (إشارات) سريعة، من خلال المنظور الإسلامي، إلى عدد من القضايا المعاصرة، وتتضمن ثانيتها مجموعة من المقالات والافتتاحيات الصحفية التي كانت قد نشرت في عدد من الصحف المحلية والعربية، تعليقاً على حادث، أو تعقيباً على موقف، أو عرضاً لمسألة ما من واقع حياتنا الراهنة.. وقد جاءت تحمل طابعها المبسط وأسلوبها الخطابي ونفسها العاطفي، مما كانت تقتضيه الأحوال وقت كتابتها في منتصف الستينيات. أما المجموعة الثالثة فتتناول بالمناقشة والنقد عدداً من المسائل المتعلقة بالفكر والعقيدة والتاريخ..

وهذه المعطيات تتأرجح، في مجموعاتها الثلاث كما سيجد القارئ، بين التحليل الفكري الهادئ الدقيق، وبين العرض الأدبي الحار، والصراخ الصحفي ذي النبرات المرتفعة.. ولكنها جميعاً تصدر ـ فيما أرجو ـ عن المعيار الإيماني الواحد، وتحمل شخصيتها الإسلامية المتميزة..

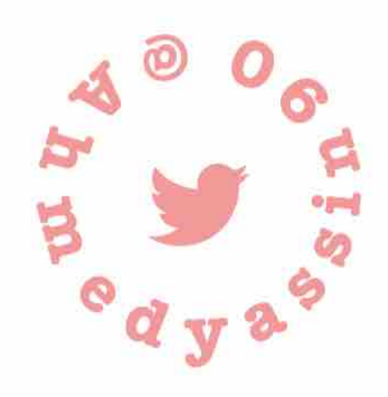
فإن أكن أخطأت في واحد من مقالاتها أو اثنين أو عشرين.. فأرجو أن يتداركني القراء بالتصويب..

ومن الله التوفيق

الموصل
عماد الدين خليل

تصوير
أحمد ياسين





@Ahmedyassin90

١

إشارات

الحلم الكبير

نطمح دائماً إلى أن تتحقق في أرضنا العربية الدولة المتحررة الواحدة، والمجتمع الذي لا فيه ظالم ولا مظلوم.. ونوجه أنظارنا واهتماماتنا وجهودنا باستمرار صوب أهداف خارجية، نرجو عن طريق مغاضبة بعضها والتزام بعضها الآخر تحقيق حلمنا الكبير.. ويبلغ من نزوعنا الخارجي هذا أن تتجه فئة منا إلى تحميل بعض الدول الكبرى المتقدمة كل أسباب تمزقنا وتبعثرنا وتأخُّرنا، وتتجه فئة أخرى إلى الالتصاق ببعض الدول الكبرى المتقدمة علَّها تقضي على أسباب هذا التمزق والتبعثر والتأخر، وتقودنا إلى حلمنا الكبير!!

ولم يلتفت أحد منا ـ إلا القلة القليلة ـ إلى حقيقة أن أي حلم كبير، أو هدف مصيري حاسم، لن يتحقق إلا بأن ننظر في (الداخل) أولاً، في أعماق نفوسنا، ونسيج عواطفنا، وخطوط تفكيرنا، وخلايا اهتماماتنا، وأسس أخلاقيتنا، لكي نعيد تنظيم وصياغة هذه النفوس على كل مستويات الفكر والعاطفة والمطامح والأخلاق، بما يمكننا من تحقيق الشروط الأساسية اللازمة للتحرك صوب أهدافنا والاقتراب يوماً بعد يوم من حلمنا الكبير!!

وما كان لأمة تسعى إلى مصيرها أن تغفل عن هذه الحقيقة الأساسية في التعامل مع سنة التاريخ.. ولكن يبدو أن هناك من استؤجر في قلب بلادنا لكي يصرفنا دائماً عن تلمس الطريق الصحيح في الأعماق، ويوجهنا إلى

أهداف خارجية بعيدة المنال نصبُّ عليها جام غضبنا مستنزفين طاقاتنا في هذا الهجوم غير المجدي، أو نتعبدها ونتقرب إليها ونتكئ عليها ظانين أنها ستحملنا على جناحيها السحريين إلى حلمنا الكبير..

يبدو أن هنالك من يخوننا من بين ظهرانينا، وأن الزعامات السياسية والفكرية والأخلاقية التي اختيرت لتنفيذ هذه الخيانة، قد نجحت لحد الآن في أداء الدور الذي طلب منها أن تؤديه، بل إنها تزداد نجاحاً يوماً بعد يوم.. لأنها ـ في أعقاب كل هزيمة ـ تقدر ـ بإشارة بسيطة ـ أن تحرك عشرات الآلاف من المؤمنين لكي يرقصوا في الشوارع والساحات، ويشقوا حناجرهم هتافاً ضد الإمبريالية، أو أكفهم تصفيقاً للمعسكر الحليف.

إن هذا التأرجُح المحزن من غضب ضد عدو ما كان له أن يهزمنا لو أنّا عرفنا كيف ننتصر في (الداخل)، في جبهة النفس، وفق ما علمنا الرسول عليه الصلاة والسلام إياه، فسماه لخطورته (الجهاد الأكبر)، وبين ارتماء في أحضان صديق لا تهمه مصالحنا وأهدافنا بقدر ما يسعى إلى استغلال هذه (السذاجة) فيربت على أكتافنا ظاهراً، ويمتصنا باطلاً، بما لا يدعنا، في مستقبل قريب أو بعيد، نملك قطرة من دماء!!

لقد طرحها القرآن الكريم قاعدة عريضة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾. وبدون هذا التغيير النفسي الذي هو مفتاح المصير، سنظل ندور في الحلقة المفرغة، حتى لو ضربنا رؤوسنا بألف جدار غاضبين أو مستعطفين.. بدون هذا التغيير ستظل أمتنا تعاني (الخيانة) الخطيرة من أبنائها أنفسهم، وتحمل في دمها وخلاياها جراثيم الداء الوبيل الذي يفتك بها ويصدها عن المضي إلى أهدافها بصحة وحيوية وعافية.. وترين على أعينها وأفئدتها طبقة من الغبار الكثيف يحجب عنها الرؤية الحقيقية لخرائط

الصراع في عالمنا، ومواقعه الأساسية، فتتخبط في الدرب، وتتلقى رؤوس أبنائها ضربات المتصارعين وهم لا يرون أيّهم العدو وأيّهم الصديق..

وكيف نرجو لأمةٍ تحمل في مسيرتها حشداً من الخونة، وفي دمها كتلاً من الجراثيم، وترين على أعينها طبقة من الغبار، أن تصل إلى أهدافها وتحقق حلمها الكبير؟! وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾.

لقد منحنا القرآن الكريم بآياته الحاسمة (الطريق)، وسلمنا (المفتاح)؛ فلنجرب مرة واحدة أن نفتح الباب الموصد بمفتاحه الحقيقي، لكي نمضي ـ من ثم ـ على الطريق إلى حلمنا الكبير.

المقدسات... أم القضية

لكثرة ما قيل، ويقال عن استرداد المقدسات، يتساءل المسلم: هل إن جهادنا المعاصر ينصبُّ على استرداد المقدسات؟ وبصدد فلسطين بالذات، ألا تعني القضية كلها أمراً مقدساً يتوجب التحرك من أجله: عقيدة وأرضاً وشعباً؟ أم أن المسألة مسألة (قدس) فحسب نسعى لتخليصها من قبضة بني إسرائيل؟

وما الذي نريده بالمقدسات.. وباسترداد المقدسات؟

إن كنا نريد استعادة القدس ومساجدها، بأي أسلوب كان حتى ولو اقتضانا ذلك القيام بمساومات طويلة لا تحمل روح الجهاد الحاسم ولا نفسه ولا عنفه، فإننا مخطئون ولا شكَّ.. وإن كنا نريد استعادتها على حساب بقية الأرض المغتصبة فإننا مخطئون كذلك.. وإن كنا نسعى، من أجل تخليصها من قبضة الطاغوت الإسرائيلي، إلى وضعها في أيدي الطاغوت الدولي الأمريكي ـ الروسي تحت ستار الأمم المتحدة وشبحها غير الملموس.. فإننا مخطئون كذلك.. وإن كنا نسعى إلى تملق الصليبية الغربية والتنازل لها عن بعض حقوقنا داخل القدس نفسها من أجل استرداد البعض الآخر، فنحن مخطئون كذلك..

وفي كل الأحوال فإننا سنغضب الله ورسوله عندما نمارس هذه الطريقة الخاطئة في تجزيء أهدافنا الكبرى، وتحويل الجهاد إلى استراتيجية البحث عن المكاسب الصغيرة..

والجهاد الإسلامي لم يكن يوماً عملاً جزئيّاً مفككاً هدفه استرداد هذا الموقع أو ذاك مهما كانت قدسيته.. ولكنه حركة شاملة تطارد الباطل والاغتصاب والظلم والاستعباد حيثما كانت.. وفي أي مكان.. تقاتلها جميعاً.. سواء تمركزت في القدس أم انساحت إلى صحراء النقب وسيناء.. واستعبدت مدينة تعجُّ بالمآذن والقباب أو استعمرت أرضاً قفراً تترب ثياب سكانها البدو.. القلائل.. رياح الخماسين...

والمسلمون الرواد انطلقوا يوم انطلقوا، لفتح العالم كله وتغييره.. كان هدفهم المركزي ألا تبقى في الأرض سلطة باغية وطاغوت ظالم يستعبد الناس.. يصدهم عن حرية الرؤية والاعتقاد.. ويضيق الخناق عليهم.. لقد طرحوا شعارهم واضحاً وبحروف يراها ويقرؤها الجميع: جئنا لكي نخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.. إنه ـ إذن ـ الخروج بالإنسان من محنته مع أربابه المزيفين.. الخروج به إلى عالم التوحيد والحرية والعدل..

وما دام الإنسان في العالم يعاني من ضغوط الشرك، والاستعباد، والظلم.. فإنه محتوم عل كل مسلم أن يرفع راية الجهاد لإنقاذ الإنسان.. في القرن العاشر أم العشرين... وفي صحاري إفريقية وآسية أم في جبال الهند والألب والأنديز..

ترى.. لو تمَّ لنا تحرير مقدساتنا من قبضة قراصنة الصهيونية والاستعمار.. أيتحتم علينا أن نضع السلاح ونكف عن الجهاد؟

كلّا.. فالجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة كما يقول الرسول القائد عليه الصلاة والسلام..

إن الحق واحد.. والقضية واحدة.. والجهاد واحد.. والمسألة برمَّتها مسألة مقدسة ما دام يراد بها وجه الله وحده.. فحيثما أريد وجه الله.. حيثما كانت هنالك مقدسات يجب أن نستميت دفاعاً عنها.. أو استرداداً لها وتحريراً..

رجل السلاح أم بطل السلام؟

عجيب أمر أمتنا في عقودها الأخيرة هذه، إنها بعد ثلاث هزائم متوالية[١] تتلقاها على يد أخس خلق الله، تدعو إلى (السلام) وتنشئ المنظمات من أجله، وتختار القيادات المتخصصة لكي تتولى مسؤوليته الصعبة!! وتخصص في أجهزة إعلامها الفرص الواسعة لنشر مبادئه وتعميق محبته في النفوس.. وما أكثر (المسيرات) التي انطلقت في أعقاب كل هزيمة تجوب عواصم الأقطار العربية رافعة شعارات السلم العالمي والمحبة بين الشعوب!!

ليس صعباً أن نفهم دعوة اليهود إلى السلام، وقد حققوا ما أرادوه حرباً، وهم يتحرَّقون الآن لأية بادرة تمنحهم الأمل بسلام حقيقي مع جيرانهم العرب، وتسقط جدران الكراهية والبغضاء التي أحاطت بهم منذ لحظات اغتصابهم الماكر.. ولكن من الصعوبة بمكان تصوُّر أن تقوم منظمات العرب الطلائعية وروادها المثقفون، وزعاماتها التقدمية، في طرح شعارات السلام والمحبة، وهي المهزومة المندحرة، التي تتحرق شوقاً لاسترداد شبر واحد من أرضنا المغتصبة التي لن تعود إلا بقوة السلاح ومنطق الحرب وحده!!

---

(١) لاحظ أن هذه الأسطر كتبت قبل حرب تشرين (رمضان) ١٩٧٣م.. ومع ذلك!!

إنهم يتناقضون مع منطق التاريخ وحركته، باعتبارهم مهزومين مندحرين يجب ألا يفكروا إلّا بالحرب والاستعادة المسلحة، ويتناقضون مع أنفسهم لأنهم يرفضون ـ من جهة ـ أي حل سلمي مباشر مع عدوهم، ويشجعون ـ من جهة اخرى ـ وعلى الجبهة الأوسع، والأكثر امتداداً، روح السلام والمحبة، ويبذلون الجهود التربوية والتثقيفية والإعلامية المتواصلة من أجل خلق (رجل السلام) لا (السلاح) في بلادنا!!

إن زعماءنا وطلائعنا في حاجة إلى من يصرخ في وجوههم لكي يتجاوزوا هذا التناقض والازدواج، قبل أن نخسر البقية من وجودنا وكرامتنا.. إننا بحاجة إلى (المجاهد) لا إلى (المسالم)، وإلى (الغاضب) لا إلى (المحب)، وإلى (الرافض) لا إلى (المتقبِّل)، وإلى (الرشّاش) لا إلى (غصن الزيتون)، وإلى (المصفَّحة) لا إلى (حمامة السَّلام)، وإلى (رجل السلاح) لا إلى (بطل السلام).. هل نقول ـ كذلك ـ: إننا بحاجة إلى (محمد) لا إلى (المسيح)؟!

إننا أمة منهزمة، تعلق أبصارها وآمالها وآجالها، بيوم النصر.. الذي هو آتٍ لا ريب فيه، وتلك هي (سنة) التاريخ التي يعلمنا القرآن إياها.. ولكن هذا اليوم ما كان ليجيء ونحن نغضي عن بداهات النصر وعن شروطه الأساسية التي يعلمها أقل الناس وعياً وإدراكاً..

إننا لو أردنا أن نكون أكثر منطقية مع أنفسنا وظروفنا التاريخية، لعاقبنا كل من يلفظ كلمة (السلم) في بلادنا، ويتشدَّق بها، باعتباره خائناً مارقاً.. بل لذهبنا إلى أبعد من ذلك، فانتزعناها من بطون المعاجم والقواميس وألغيناها من حسابنا إلغاء.. وكتبنا في كل صفحة، ورفعنا في كل مكان.. كلمات الحرب وشعارات الجهاد، ثم لأصدرنا أمراً بأن تتصدر كل كتاب رسمي وغير رسمي، هذه الآية: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن

رِبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾!!

إن النعامة إذا ما أحست خطراً قريباً، دفنت رأسها في الرمال وتركت مؤخرتها مكشوفة للخطر القريب.. وما أشبه قياداتنا وطلائعنا الداعية للسلام، وهي ترسل كل يوم مبعوثاً إلى الهند أو إلى ألمانية الديمقراطية لكي يحضر مؤتمراً للسلم، أو يشترك في توقيع وثيقة تندد بالحرب واستخدام القوة.. ما أشبههم بالنعامة وهم يدفنون رؤوسهم المفكرة في أضاليل السلام وأحلامه السارية التي لا تكلف جهداً ولا تبعث في العدو رعباً.. ولكنهم لا يدرون أنهم يتركون مؤخرة وجودهم وأرضهم وديارهم وشرفهم لكي تكتسحها قوة الحرب والسلاح الغاشمة التي لا تعرف سلماً ولا محبة ولا تمارس ودّاً وتآخياً بين الشعوب!!

إنني لا أعني هنا (الماركسيين) الذين يرون في الدعوة للسلم شعاراً (موضوعيّاً) لا يرتبط بمرحلة (راهنة)، فهؤلاء ـ فوق تناقضهم التاريخي والموضوعي نفسه ـ مارسوا أقذر خيانة شهدتها الساحة الفلسطينية منذ لحظة تمخضها حتى الآن... فهم ليسوا موضع النقد إذن، ولكنهم أولئك الذين يحرصون أشد الحرص على (القضية) بسبب التزامهم (القومي)، فيخدعون عن موقفهم العادل بإيحاء ماركسي أو أمريكي ويدعون للمحبة والسلام!!

وليس إلّا ساذجاً بليداً من يقبل ـ بعد هذا أو قبله ـ تبرير هؤلاء بأن دعوتهم للسلم هي إدانة ضد إسرائيل، وأنها لن تصدهم أبداً عن المضي في طريق التسلح لاسترجاع الأرض المغتصبة بقوة السلاح، وإنه لاتناقض بين هذا وذاك، لأن هؤلاء لا يدرون كم يرتبط ـ ارتباطاً عضويّاً ـ أي موقف في التاريخ البشري إزاء أية قضية مصيرية، وإن أي خلل أو تناقض في جانب منه سيؤول إلى تفكك ذلك الموقف ماديّاً وروحيّاً، وانعدام شروطه

الأساسية، ومن ثم انهزامه وعدم قدرته على مجابهة القضية مجابهة علمية مضمونة..

وساذج بليد أيضاً، من يتصور أن الدعوة لرفض مبادئ السلام في صراعنا الراهن هذا، يعني استبعاداً لهذه المبادئ بالكلية، واستغناء أبدياً عنها، وتحولاً إلى مواقف العنف والشوفينية والعدوان!! ورفضاً لأية محاولة للتقريب بين الإنسان والإنسان... ساذج بليد لأنه لا يدري أن الإسلام جاء لكي يكون دين السلام، وأن أتباعه مدعوون لكي يجنحوا للسلم كلما أتاح لهم خصومهم ذلك.. وأكثر من هذا، إن المسلم يلقي بكلمة السلام في اليوم الواحد مراراً وتكراراً، وهو يقف قبالة الله وحده، يمارس أقدس وأخطر عباداته على الإطلاق: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾.

التأرجح المحزن

العربي المعاصر، بسبب ضعف عقيدته، وما تمارسه أجهزة الإعلام معه من إرباك وتشويش، يتأرجح دائماً في مواقفه وتحليلاته السياسية بين النقيضين: السذاجة والشبحية.. الثقة الكاملة والشك المطلق.. الانتماء البليد والرفض الأعمى.. وهو في كلتا الحالتين يمارس بحق نفسه وحق أمته خطيئة كبرى، هي ولا ريب من بين الأسباب الأساسية لنكساتنا ونكباتنا وهزائمنا.

طيلة الخمسينيات وحتى منتصف الستينيات، أولى (العربي) ثقته الكاملة وانتماءه البليد لعديد من القيادات الثورية التي صنعت على عين الاستعمار والصهيونية لكي تؤدي الدور المرسوم الذي أشار إليه (بن غوريون) أكثر من مرة عندما تحدث عن التغييرات الضرورية في المنطقة من أجل حماية الدولة اليهودية الناشئة..

ولشد ما كان ـ هذا العربي ـ يحذر ـ من قبل القلة الواعية ـ من ثقته التي لا تشك، وانتمائه الذي لا ينقد، وتعبده الذي لايشرك بالزعامات السياسية والفكرية إلّا الله!! لكنه كان دائماً يشيح غاضباً، ويرى بمجرد الحديث في مسألة كهذه، مجرد عرضها للبحث والمناقشة.. كفراً ومروقاً..

إنه كان يندفع بكل طاقاته وقدراته لكي يصبَّها في مجرى ولائه الذي لا ينظر ولا يسمع ولا يفكر.. وهو خلال اندفاعه هذا يذكرنا بأولئك الوثنيين الذين حدثنا عنهم القرآن أكثر من مرة، والذين كلما دعوا إلى

(الحق) الذي يقوم على المنطق والحجة والبرهان: ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا﴾!!

لنتذكر ما كان يجري في الخمسينيات.. نفس الصورة الساخرة، المترعة بالاحتقار، تجتاز القرون لكي يعاد تمثيلها من جديد.. (العربي) وهو يذرع المسافات الطوال، صدوراً عن أمر الزعامة التي آمن بها وانتمى إليها، واضعاً أصابعه في أذنيه، مستغشياً ثيابه، مصرّاً على اندماجه الكامل بالسلطة، مستكبراً بزعامته تلك، ظانّاً أنها ستفتح الدنيا بإشارة واحدة، وتبني بإشارة أخرى ـ أو نصف إشارة ـ العالم العربي الجديد، الموحد، الحر السعيد!!

وبدأت الأمور تتكشف يوماً بعد يوم.. العلاقات المشبوهة تفرض نفسها على الأذهان، والشخصيات التي لا تملك ماضياً مشرِّفاً، وربما كانت يهودية أو أمريكية أو إنكليزية صرفة تلبس كوفية وعقالاً، تصل إلى قمة الأجهزة، وشرايين الزعامات، وتلعب ـ من هناك ـ بمصائر الناس.. والوصوليون الذين لا عقيدة لهم، يكلفون بصياغة العقيدة وتطويرها.. والانتهازيون الذين لا ينتمون لغير مصلحتهم، يمثلون القاعدة الصلبة، المخلصة للنظام..

إلا أن الأخطر من هذا كله: أنه في اللحظات الحاسمة.. لحظات المصير.. اللحظات التي يجد فيها النظام نفسه مضطراً للامتحان.. للارتطام المحتوم بالعدو القابع على الحدود.. ما كانت تلك الزعامات لتتكشف إلّا عن الخواء المحزن والبوار المميت.. وما لبثت ضربة حزيران أن هتكت كل الأستار، ومزَّقت كل الحجب، وبينت للناس مقدار ما ضيعوه من جهد وعرق وكدح ودماء، خلال انتماءاتهم العمياء البكماء تلك، وعبر ما يقرب من عقدين من السنين، والعدو بجوارهم يبني وينقد، ويعارض ويناقش، ويعمق مقدرته (الذاتية) ماديّاً ومعنويّاً على المجابهة في لحظات المصير..

وابتداء من هزيمة الهزائم تلك بدا العربي المعاصر يتحول كالبندول تحولاً مضاداً، ولكنه لايقل خطورة وضياعاً عن اتجاهه الأول.. إنه الآن يشك بكل زعامة وبكل عقيدة.. هو الآن يرفض الانتماء لأية دعوة أو تنظيم.. ويتمنّع عن الانخراط في أي تجمع يسعى إلى إعادة البناء والاستعداد للمجابهة.. وهو يعلن عن تقبله لمناقشة أي شيء والحديث في أي موضوع إلا موضوع السياسة والمبادئ التي جرت عليه الوبال وضيعت زهرة عمره عبثاً!!

أكثر من هذا، إنه يتصور أن ليس بمقدور العرب بعد اليوم، أن يحققوا انتصاراً ما على أية جبهة من الجبهات السياسية أو العسكرية أو العقائدية[1]، وأن عليهم أن ينصرفوا للإعمار الداخلي فحسب، فهذا هو ميدانهم المتبقي الوحيد.

والعربي المعاصر، وهذا هو أخطر ما في المسألة، يغلب على ظنِّه أن العدو اليهودي قوة لاتقهر، وقدر لا رادّ له، وأخطبوط ذو أرجل سبعة تمتد في كل اتجاه، وفي اللحظات المناسبة، لكي تعتصر فريستها وتتركها عظاماً مكسورة وفضلات. إن العدو في تصورهم الجديد قد تحول إلى شبح رهيب لا يمكن تحديد أبعاده، ولا التكهن في مواطن وجوده، ولا تقدير ما سيفعل في المستقبل.. شبح يشترك معه في تآمره علينا حتى الملائكة والشياطين، ويبرز في كل مكان وزمان، ويفاجئ الناس والعرب بالذات بالنتائج النهائية، دون أن يكون لهم الخيار في مناقشتها أو رفض بعض بنودها.

إنه الشبح الذي يذكرنا بقدر اليونانيين القدماء، الذي ما كان أحد ليقدر على مجابهته، وما كان هو يرحم أحداً!! والعربي المعاصر من أجل هذا كله لا يرى في الانتماء إلى أية زعامة، والعمل ضمن أي تجمع، أو تنظيم،

(١) لاحظ أن هذه الأسطر كتبت قبل حرب تشرين (رمضان ١٩٧٣م).. ومع ذلك!!

والتزام أية عقيدة.. لايرى في هذا كله نتيجة إيجابية أو جدوى تمنحه الدافع والمبرر..

إن الفعل الخاطئ لا يسوق إلا إلى رد فعل خاطئ.. تلك هي سنة الحياة.. لقد تطرف العربي المعاصر في العقود السابقة في ثقته الكاملة وانتمائه البليد بزعاماته، وهو الآن يتطرف في رفضه وشكه وتصوراته الشبحية التي تشل أية مقدرة على الفعل والمقاومة والإبداع.. وعلينا نحن أن نبصِّره بتأرجحه المحزن هذا بين الأفعال والممارسات الخاطئة، وأن نمنحه السبيل الذي يقوده إلى مصيره الذي أفلت من بين يديه: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾.. (أدعو على بصيرة) وفي هذه العبارة ذات الكلمات الثلاث يكمن السبيل!!

حقل التجارب

منذ مطلع النصف الثاني من هذا القرن، والعالم الأفروآسيوي عامة، والإسلامي خاصة، حقل لتجارب قادة الاستعمار الجديد.. في بلاده يتلمّسون خطأهم وصوابهم، وعن طريق كوادره القيادية يصلون إلى أحسن السبل لحماية وجودهم ومستقبلهم، وبالتغيير المستمر لخرائطه وأوضاعه يضعون أيديهم على أسباب انتصارهم وتقدمهم.. ولن يكون ذلك كله إلّا على حساب أبناء هذا العالم المنكود أنفسهم، لأنهم هم المادة الخام التي يعتمدها الاستعمار الجديد لبناء استراتيجيّته المتطورة في صراعه للسيطرة على العالم، ووقف الخطر الشيوعي بكتله العديدة المتزايدة.

إن هذا العالم الثالث هو صمام الأمان في هذا الصراع، ولكنه ليس أمان الكتلة الأفروآسيوية ولا سلامها، إنما المارد أمان العالم الغربي وسلامه، ومن ثم كان قادة هذا العالم مستعدين لمعاملة مواقع الكتلة الأفروآسيوية، لا وفق متطلباتها ومصالحها وأهدافها، ولكن وفق متطلبات القيادة الغربية ومصالحها وأهدافها.. وهكذا ينفتح هذا التعامل على كل الأساليب التي يمكن أن تحقق هذه الأهداف بغضِّ النظر عن مقدار الشرف في هذه الأساليب. وهكذا أيضاً كان هذا التعامل يضع في حساباته كل شيء إلا الخاصة البشرية للكتلة الأفروآسيوية التي لا تعدو أن تكون وقوداً يضيء للغربيين سبل انتصارهم وتفردهم في قيادة العالم.. وهكذا جرت مذبحتا (الموصل) و(زنجيبار) باسم الشيوعية، وتمردا (بيافرا) و(جنوب السودان) باسم التحرر الوطني، وانقلابات الدول الإفريقية التي جاوزت

الثلاثين باسم الديمقراطية.. وهي ليست في حقيقتها سوى تجارب جديدة تجريها القيادات الغربية عن طريق صنائعها في إفروآسية للوصول إلى أضمن الطرق لوقف المدّ الشيوعي!!

إن الانقلابات العسكرية المتلاحقة التي تشهدها دول هذا العالم يوماً بعد يوم، وحيناً بعد حين، والمجازر الدموية التي ترافق هذه الانقلابات أو تعقبها، والتغييرات الاقتصادية المتأرجحة كالبندول بين اليمين واليسار، والحرية الضائعة بين مجانية أخلاقية تتميّع معها الأشياء والعلاقات والمواقف، وتفقد شكلها وصلابتها، وبين بوليسية إرهابية تحاسب الناس حتى على الهواء الذي يتنفَّسونه، والقلق المدمر الدائم من أن وضعاً ما لا يمكن أن يدوم طويلاً، وأن ما سيعقبه من تغييرات جديدة سيجيء عاجلاً أم آجلاً.. والثقافة والإعلام التي تعاني ازدواجاً خطيراً بين المثاليات والانتماءات التقدمية الزائفة، وبين ما يحدث (فعلاً) في عالم الاجتماع من ظهور طبقة مترفة متنعمة، وفي عالم السياسة من ارتباطات رجعية وتنازلات مخزية.. هذه كلها لا تحتل سوى مساحات محدودة من التجربة التي تمارسها الإمبريالية للوصول إلى الأضمن والأحسن.. الأضمن بالنسبة لتفوقها الاستراتيجي، والأحسن بالنسبة لمستقبلها ووجودها.

أما المساحات (الأخرى) اللا منظورة في خارطة التجربة، فإنها تضم تعاليم وقيماً وارتباطات وخططاً لا يسمح لكل إفروآسيوي أن يطلع عليها، وإلاّ أطاح به الحرّاس الذين نصبتهم الاستخبارات الغربية لصد كل الطامحين للكشف والمعرفة وإزالة الأستار.

وقلة قليلة من أبناء هذه الكتلة القارية الضخمة هي التي تُمنح حق الاطلاع والإسهام، تلك التي ربيت على عين الإمبريالية ورعايتها، وصيغت صياغة خاصة، وأرضعت لبناً مخصوصاً تشربته دماؤها وخلاياها.. ومن ثم

سمح لها أن تصل إلى القمة على حين غفلة، بانقلاب عسكري أم بقفزة دستورية مهدت لها أجهزة الإعلام والتخطيط.. وهناك في القمة تستطيع أن تحيط علماً بأبعاد الخارطة المرسومة ومساحاتها. إذ لا خوف ولا خطر من تراجع أو رفض أو تمرد.. لأنها ـ وهي في القمة ـ إنما تقف على الخط الدقيق الفاصل بين النعيم والجحيم، بين البقاء في القمة والسقوط إلى الحضيض، بين الدعاية الواسعة العريضة، وبين تسليط شائعات الامتهان والاحتقار..

باختصار.. إنها تقف بين الحياة والموت.. وأي إنسان، لا تحصّنه العقيدة ولا تحميه من الداخل التزاماتها وضبطها الذاتي، يمكن أن يختار الموت على الحياة، والاحتقار على الشهرة، والجحيم على النعيم.. إلاّ أن يكون ساذجاً أو مجنوناً!!




المَسَاحَة السَّوداء

إن مقارنة بسيطة بين فاعلية سفرائنا في الخارج، وسفراء الدول الأخرى ومن بينها إسرائيل، ونظرة مستعجلة على شخصيات ومطامح واهتمامات هؤلاء وهؤلاء، تطلعنا على أحد أسباب هزيمتنا النفسية والسياسية أمام الرأي العام العالمي، رغم أننا لا نؤمن بما لهذا (الرأي العام) من دور حاسم خطير في صراعنا مع اليهود!!

إن سفراءنا دمىً فقدت القدرة على الحركة الذاتية، وشخصيات هزيلة تافهة فقدت هوياتها، وأشباه رجال لم تعْدُ مطامحهم يوماً حدود الأرض الجميلة التي أقيمت عليها سفاراتهم، والبيوت الفارهة التي قيل لهم: ناموا فيها.. ومراهقون لم يتخطوا بعد مرحلة الشبق والنهم، ولم يتجاوزوا إغراءات الخمر والميسر..

يخرجون إلى عواصم العالم، بعضهم من عوائل (كبيرة) أفسدها الترف وجمَّد قدراتها، وآخرون من عوائل (صغيرة)، لكن ملقهم وجبنهم وانتهازيتهم قذفت بهم بعيداً إلى قارات الدنيا وعجائب الأقاليم السبعة.. يخرجون كموظفين عاديين، لا يحملون معهم فكراً ولا عقيدة ولا هدفاً، ولا يتشوَّفون إلى تحقيق أهداف وتسجيل نقاط على خارطة برنامج سياسي مدروس، مفروض فيهم أن يحملوه معهم ويتفانوا في تنفيذه وتجاوزه إلى خرائط أخرى أوسع وأبعد..

وبينما يتحرك سفراء العالم في عواصمنا بذكاء وديبلوماسية وإخلاص لبني جلدتهم، فيهيئون للانقلابات الدائمة، ويقيمون الحكومات ويسقطون

النظم التي تندّ عن طريق برنامجهم المدروس المرسوم. . إذا بسفرائنا يضربون في عواصم العالم وبلدان الأرض، مثلاً عمليّاً على ضعفنا وتمزقنا. . ويعطون لحكومات وشعوب الدول التي يعملون فيها الدليل على أننا لا زلنا بعد في مرحلة الوصاية، وأن من الخير لنا ألاّ نطلب الفطام وأن تظل أفواهنا معلقة بأثدية لندن وواشنطن وموسكو، ترضع لبنها وتشب على الإعجاب بطرائقها في الحياة، وعلى الخضوع والخنوع والطاعة للأمهات اللواتي رعيننا وأرضعننا!!

كم من سفرائنا في بلاد العالم حرَّكتْه هزيمة حزيران ودفعته إلى أن يبعد ـ ولو قليلاً ـ عن مواضع العفن والركود والفساد إلى آفاق الحركة والطموح والنشاط المدروس؟! وكم من سفرائنا في قارات العالم هزته نخوة آبائه العرب وحميتهم فخرج إلى الشوارع والساحات لكي يخطب في شعوب العالم، ويسمعها صوت فلسطين التي دهمتها الذئاب، ويقود المظاهرات ليعرب عن سخط المظلومين على الظالمين، والمجردين من السلاح على الذين جرّدوهم فقتلوهم؟! وهل خطر ببال عدد من سفرائنا يوماً أن يجتمعوا ويتدارسوا الأمر من كل أطرافه، ويرسموا خارطة عمل مرحلي على مستوى العالم العربي والإسلامي كله، من أجل أن تكون أهدافهم متقاربة متوحدة، ومن أجل أن يكون عملهم مدروساً، ومن أجل أن يكون لوجودهم ثقل في ميدان الصراع السياسي والعلاقات الديبلوماسية؟ وعلى أي أساس يجتمعون، إذا كان رؤساؤهم في البلدان التي قذفت بهم لا يعرفون هدفاً ولا يتلمّسون طريقاً؟

إن سفراءنا في الخارج مساحة سوداء على خارطة تاريخنا المعاصر. . وكان من الممكن أن يضيئها وهج دماء القتلى والشهداء على أرض فلسطين. . لكن القلوب قد عميت وغطت عليها النكت السوداء. .

وكيف يكون لوهج الدم قدرة عل الإنارة والإبصار، إذا كانت نار الخمرة وسعير الشهوة يصدّهم عن كل وهج، ويصمّ آذانهم عن كل نداء؟!

ماذا بعد الاعتراف

إذا أردنا أن نلقي نظرةً مسبقة على مصيرنا بعد الاعتراف بإسرائيل، فلنا أن نسأل أنفسنا وقادتنا وزعماءنا: هل للعربي المعاصر قدرة على مجابهة رأسمال اليهود ونسائهم وماكيافيليتهم..؟ وإذا كان الجواب بلا، وهو يقيناً سيكون كذلك، فلماذا ـ إذن ـ نسلم أنفسنا إلى الهزيمة الحقيقية الأخيرة في تاريخ صراعنا مع اليهود؟ ولماذا إذن نقطع على أنفسنا الطريق، ونسعى بملء إرادتنا إلى الزاوية التي ستفقدنا وجودنا كأمة لها حضارتها وتاريخها ومستقبلها؟!

إننا يجب أن ندرك الأبعاد الحقيقية لصراعنا مع اليهود، إنها أبعاد حضارية لاتقتصر على السياسة والحرب والاقتصاد فحسب، بل تتعداها إلى كل الآفاق العقائدية والثقافية والنفسية والأخلاقية والسلوكية.. إن حركة التاريخ لا ترحم، وهي عندما تصعد صراعاً بين أمتين إلى المستوى الحضاري، فإن نتيجة واحدة يمكن أن تنجم عن هذا الصراع، لا بديل لها، وهي أن إحدى الحضارتين ستنتصر والأخرى ستنهار وتموت..

إن وجود اسرائيل في قلب عالمنا الإسلامي يمثل تركيزاً خطيراً لتحدي الحضارة الغربية (الأوروبية ـ الأمريكية) لنا، مضافاً إليها كل مايملكه اليهود من قيم ومعتقدات وقدرات ماكيافيللية في عالم الصراع. لذا فهو تحدٍّ مركب صليبي ـ يهودي، يسعى لتوجيه الضربة القاصمة للأمة التي طالما انتصرت على هجمات الصليبيين واليهود، وطالما خرجت عبر تحدياتهم وهي أصلب

عوداً وأقدر على الاستمرار والتطور.. ومن هنا نجد هذا التجاوب العفوي العميق بين جماهير الغرب المسيحية، وبين تطلعات اليهود وأهدافهم، هذا التجاوب الذي يسود القواعد البشرية المسيحية، والذي وجد تعبيره على مستوى القيادات بالإعلان الذي أصدرته البابوية في تبرئة اليهود من دم السيد المسيح (عليه السلام)، وبالمنشور الذي أعقب ذلك معلناً حق يهود في أرض الميعاد!!

وهكذا يبدو أن صراعنا مع إسرائيل قد حشدت له من جهة العدو كل قوى التعارض وطاقات الصراع التاريخي الطويل بين الإسلام وأعدائه.. ومن ثم ـ كذلك ـ كان علينا أن نمدَّ مقاومتنا للعدوان إلى كل مساحاته الحقيقية، وأن نعمل على مستوى التاريخ والحضارة وليس على مستوى الحرب والسياسة والاقتصاد فحسب.. وأول ما يفرضه موقف صحيح شامل كهذا هو ألا ندع لليهود فرصة التسلل إلى مواقعنا الحضارية: ديناً وثقافة واجتماعا وأخلاقاً وسلوكاً وروحاً، بعد أن سمحنا لهم بالتسلل إلى مواقعنا السياسية والعسكرية والاستراتيجية، لأن تسللهم التالي سيكون أخطر بكثير، وسيعطي لانتصارهم السياسي والعسكري بعده الحقيقي الحاسم، لأنهم سوف يعتمدون هذا النصر لضربنا في الصميم.. وإفقادنا قيمنا وتراثنا وحضارتنا، وتفكيك علاقاتنا وأواصرنا، وتمييع أخلاقنا وسلوكنا، ولسحق إيماننا وصمودنا.. ضربات متلاحقة في الصميم، ستنتهي بأن نغدو كعرب مسلمين خبراً من الأخبار، وسنضيع في غمار التحدي الحضاري الغربي الذي تمثله إسرائيل مضيفة إليه كل طاقات اليهود وميزاتهم التاريخية، ورغباتهم العاتية في سحق وتدمير كل من يقف في طريقهم معتمدين أموالهم ونساءهم وخداعهم!!

ولن تجيء هذه الضربة المميتة ما دمنا قد سددنا على إسرائيل منافذ التسلل إلى مقاتلنا، وحصرنا نشاطها المعادي وحركتها التاريخية المضادة

في نطاق استراتيجية السياسة والحرب.. ولكنا سنمنحها هذه الفرصة يوم أن نسمح لأنفسنا وقياداتنا بأن تعترف بها، وتسالمها، وتفتح أمامها الدرب العريض للوصول إلى أهدافها الحقيقية الحاسمة.. ولات حين مناص!!



الظلال..
ذلك الإنجاز المتفرِّد!!

عندما تكون الأهداف والمنطلقات واحدة.. وعندما تكون المحبة عميقة وكبيرة؛ تجيء المواقف والتوقعات والنتائج واحدة..

هكذا يحدث الإنسان نفسه، ويصل حد الاقتناع عندما يطالع في (الظلال).. أمام أي حرف أو كلمة أو آية أو مقطع أو سورة، يقف الإنسان المؤمن الموحد المحب، ينتابه إحساس عميق، مسبق، وتخمين يبلغ اليقين، ورؤية نقية لا غبش فيها.. بما سيقوله (الشهيد) حول المسألة!!

وفي معظم المواقف، إن لم أقل كلها، يجيء الإحساس المسبق صادقاً نقيّاً، ويقرأ الإنسان تحليل القضية أو الموقف أو الكلمة وكأنه يقرأ في نفسه.. وطالما تعجَّلت وأنا أطالع في هذا السفر العظيم، لمحة أو إشارة أو تعليقاً أو صورة أو التفاتة.. فإذا بها تجيء دائماً في مكانها المناسب، وإذا بي أكون قد تعجلت أكثر مما ينبغي، لأن ما نتوقعه في ساحات (الظلال) البعيدة الشاملة المترعة لا بد أن يجيء كما نتوقع ونتخيل.. ما دمنا نحب (الشهيد) هذا الحب، وما دمنا قد آثرنا أن ننطلق معه منذ اللحظة الأولى، من نفس البداية، ونواصل الدرب معاً، عبر رؤية وفهم مشتركين.. صوب تحليل للقرآن هو في الحقيقة أروع تحليل!!

إن تفاسيرنا (القديمة) التي منحنا أصحابها الثمار والمتاعب في الوقت نفسه، كانت تعاني في كثير من الأحيان التطرف في هذا الاتجاه أو ذاك،

وكانت تتضخم في ناحية بينما تنكمش في ناحية أخرى، ولم تعرف إلا قلة منها، المنهج الذي يبحث عن التوازن والتوزيع العادل للمساحات ومتابعة كل المسائل والمواقف القرآنية بقدر مشترك من الاهتمام والتحليل. .

إننا نجد في بعضها انهماكاً مبالغاً في التحليل اللغوي أو البلاغي، وفي بعضها الآخر اتجاهاً تاريخياً يتجاوز الوقائع العلمية إلى السرد القصصي والخيال الإسرائيلي، ويتطرف في نزعته الميتافيزيقية، ويأخذ عن أهل الكتاب جل تراثهم في ميدان القصة والأسطورة والتاريخ دونما نقد ولا تمحيص.

وفي تفاسير أخرى نلمح تأكيداً على مفاهيم الفرقة المذهبية التي ينتمي إليها المفسر. . فيجيء التفسير عقليّاً متوتراً على يد مفسر معتزلي، وصوفيّاً مهوماً على يد مفسر صوفي، وخارجيّاً حرفيّاً على يد مفسر ظاهري، وفقهيّاً تشريعيّاً على يد مفسر فقيه، وباطنيّاً تأويليّاً على يد مفسر إسماعيلي!!

ورغم محاولات (عصرية) عديدة بذلت لتفسير القرآن وفق منهج حديث يتجاوز السلبيات القديمة، إلا أنها جميعاً لم تجئ كما جاءت (الظلال) شاملة موزعة، عادلة، لا تغادر المسألة التي بين يديها إلا بعد أن تشبعها بحثاً طويلاً وتمحيصاً على كل المستويات: العقيدية والتشريعية والروحية والتاريخية واللغوية والعلمية والجمالية. . ولئن بدا أن في (الظلال) تأكيداً على الجوانب السياسية والتشريعية، فما ذلك إلا لأن القرآن نفسه صب جل معطياته على مفهوم (التوحيد) المطلق الشامل الذي تنبثق عنه بالضرورة كل المواقف والاتجاهات السياسية والتشريعية التي أريد لها أن تنظم الحياة البشرية تنظيماً يتيح للإنسان المسلم أن يمارس سائر فاعلياته وهو يتحرك على أرضية صالحة ويتوجَّه بالتعبد الشامل صوب إلٰهه الواحد.

إن الكثيرين ممن مرُّوا سراعاً في (الظلال) قالوا: إنه ليس تفسيراً بالمعنى الصحيح المعروف، وإنه لا يعدو أن يكون مجرد خواطر وتعليقات

في كتاب. . . ومأساة هؤلاء أنهم اعتادوا التفكير الجزئي، الحرفي، البارد الذي لا يتجاوز مدى الكلمة ومعناها، والشرح المبسط للمفردات والعبارات والجمل، والتقصي الممل للشواهد البلاغية واللغوية، والارتداد غير العلمي إلى قصص أهل الكتاب ومتع الإسرائيليات. .

والحق أن (الشهيد) لم يشأ في كتابه الكبير مخاطبة هؤلاء، إنه تجاوز متطلباتهم إلى مستويات وآفاق عليا. فقد أكد في تفسيره على وحدة المقاطع والمجموعات والسور، ورفض التجزئة والتقطيع في محاولة رائدة في هذا المجال، كما عمق بإحساسه وثقافته الفنية الأصيلة، فكرة تناسق الشكل والمضمون، دون تفريق أو فصل، واعتمد في تحليله وسرده أسلوب (التعبير الوجداني) الذي سلكه القرآن نفسه كأحسن وسيلة لاستثارة الحس الديني لدى الإنسان، وفتح منافذ وجوده على موحيات النفس والكون والعالم، ومن ثم إدراك وحدة الخالق سبحانه والإيمان به إيماناً حيوياً حركيّاً مدركاً.

ويبقى في (الظلال) بعد هذا كله، وأهم من هذا كله، شيء أساسي يكاد يتفرد به صاحبه:

إنه محاولة فذة للانسجام مع الأجواء القرآنية ذاتها، مع (الظلال) التي تطرحها المواقف المتعددة في كتاب الله، لكي يجيء التفسير مصوغاً بالمادة القرآنية نفسها، متشرباً روحها وسماتها، مطبوعاً بخصائصها وبصماتها، ومن ثم فإن القارئ لن يجد نفسه أبداً، وقد شذَّ عن الأرضية القرآنية، من أجل تتبع مفرد لغوي، أو تخريج بلاغي، أو ملابسة فقهية، أو قصة تاريخية هي في أكثر الأحيان من نسيج الخيال. . إنه في (الظلال) يظل دائماً في نطاق (الجو) القرآني، ويندمج كلية في كلمات الله. . يتناغم معها ويتساوق ويتوغل في معطياتها إلى أبعد الحدود، دون أن يشذ لحظة أو يبعد عن النسيم الذي يتنفسه بوعيه وبصيرته، وعن البستان المزهر الذي يتجول في أفيائه الغناء بروحه وعقله ووجدانه.

إن (الظلال) في توافقه العجيب هذا مع كتاب الله، توافق الجوهر والصورة، يعد ـ لعمري ـ فتحاً في تاريخ التفسير. . ورحم الله (الشهيد) إذ سماها ظلالاً!!




محمد رفعت..
الصوت والوهج!

في تاريخ الترتيل المعاصر يبرز (محمد رفعت) علماً شامخاً، وطاقة صوتية فذة، وضوءاً شفافاً يدعو إلى الإعجاب.. ومن منا لم يسمع (محمد رفعت) ولو مرة واحدة في حياته؟!

ما الذي يشدُّ الإنسان إلى الرجل الأعمى وهو يقرأ مقاطع من سورة مريم أو طه أو يوسف أو الإنسان أو الفتح أو الكهف أو آل عمران أو غيرها من قصار السور؟ ما الذي يجعلنا نعلق أرواحنا وإحساسنا به، وننسى، ونحن نندمج بكلمات الله! مرتلة على لسان الشيخ، متاعبنا ومشاغلنا وآلامنا؟! ما الذي حمل هذا الصوت العجيب مقدرة على أن يتجاوز بنا النسبي المحدود إلى الخالد المطلق، والمأساة والحزن إلى الفرح الروحي الغامر، والتقطع والزوال إلى الامتداد والاستمرار؟ ما الذي يجعلنا نحس، وهو يصعد صوته في الأمسيات، أن الموت ليس مخيفاً إلى هذا الحد، وأن الحياة الدنيا ليست مغرية آسرة إلى هذه الدرجة، وأن المتاعب والمصائب ليست شيئاً نهائياً ساحقاً وجداراً أصمَّ، يستسلم تحت وطأتهما الإنسان؟ ما الذي يجعل الدموع تتساقط من أعيننا، وهو يرتل، ونتحرق شوقاً.. ونذوب؟!

ليس صوته الصافي الفذ الحنون هو وحده السبب وراء هذا كله، وليست المقامات والأنغام المتنوعة الغنية الخصبة هي وحدها السبب، وليست

المقدرة (التعبيرية) عن الصورة القرآنية هي وحدها السبب كذلك، إنها هذا كله، مضاف إليها أن (محمد رفعت) يسكب نفسه وهو يرتل، يذوب وجداً وهو يتنقل عبر كلمات الله ومقاطع السور والآيات، يمنح قلبه وإحساسه ووجوده بالكلية للكتاب الذي يقرأ فيه، ولا يستبقي لنفسه شيئاً، لأنه لم يعد هنالك رجل يدعى (محمد رفعت).. إنما هناك صوت بشري، متفرد، غني، خصب، قادر على الاندماج والتعبير.. ينقل لنا، بنبراته الخاصة، أصوات القرآن ونداءاته وصوره.. ويضعنا وجهاً لوجه أمام معجزته.. وكأن الآيات تتنزل علينا اللحظة لكي تستجيش مشاعرنا وتهزنا من الأعماق..

حقّاً إن الصوت البشري المبدع، هو خير وسيلة تبعث فينا الحس القرآني المليء بالغبطة الروحية، والفرح الغامر، والأمل الكبير، وتجعلنا نعلو، شيئاً فشيئاً، على آلامنا ومتاعبنا ومخاوفنا وأحزاننا، وما أكثرها في دنيا يتكسر فيها الإنسان المسلم، في اليوم الواحد، عشرين مرة!!

ونقف قليلاً عند الأداء التعبيري العجيب لدى (محمد رفعت).. إنه عندما يرتل ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى﴾ يجسد لنا بنبراته الرفيعة، وبالنغم المتسائل الذي يعلقه على الكلمة الأخيرة.. السؤال الكبير، وأزمة القلق البشري، وقضية المصير الكبرى.. ويجيبنا عليها في الوقت نفسه، فنثق، ونطمئن، ونرتاح.. وهو عندما يصرخ، بأعلى الطبقات الصوتية ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ٣٤ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ﴾!!، يضعنا، بالهزة الصوتية العالية والحزينة في الوقت نفسه، أمام أشد الخطايا في تاريخ الإنسان على الإطلاق.. جريمة الشرك وادعاء البنوة لله.. إنه يستجيش فينا أقصى طاقات الرفض والاحتقار لهذا التزييف الذي يمارس بحق الله الواحد الذي لم يلد ولم يولد!!

وبحزن عميق يعبر الشيخ (الأعمى) عن سماحة القرآن إزاء المصابين والمأزومين، وأنه لا حرج عليهم وهم يعانون ما يعانونه: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ

حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾.. إن صوته هنا يمتد، ويتماوج ويتناغم، لكي ما يلبث أن يعطينا نبرة الشكر لله على منته الكبيرة تلك، وعلى مواساته الإلٰهية التي يتجاوز بها المصابون آلامهم وأحزانهم.

ومن منا لم يسمع (محمد رفعت) وهو يرتل علينا صوراً تعبيرية أخّاذة عن مصير المؤمنين: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾.. إن كلمة (وجزاهم) تجيء هنا بنبرة يعجز القلم عن تصويرها، لكنها على أية حال تمنحنا الأبعاد الحقيقية للجزاء الإلٰهي الذي يجيء دائماً وفق أدقّ الموازين تقديراً للإنسان الذي كدح طويلاً، وأعطى كثيراً!!

وأذكر أني كنت أستمع إلى (الشيخ) وهو يرتل ماتيسر من سورة طه، وورد النبأ المفجع (المفرح!!) بتنفيذ حكم الإعدام بصاحب (الظلال).. كان الشيخ يصعد صوته آنذاك، ويمده، يمده، بنبرات غنية، متنوعة، مليئة بالحزن والأسى، وهو يقرأ: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾!!

ومن خلال الدموع الصامتة، رأيت حركة التاريخ الدائمة تدور حول نفسها، لتعيد، عبر عشرات القرون، الدور نفسه!!

ويبقى دائماً شرف الإنسان، تبقى كرامته.. في مجابهة عمليات القتل والانتقام هذه، وفي استمداد القيم الحقيقية المضيئة من لياليها السوداء.. تماماً كما كان (الشيخ) يستمد من ظلمة عينيه، الوهج الذي يعرف كيف يحرق الأفئدة ويضيئها، في الوقت نفسه!!

الانتصار الحقيقي

ليس انتصاراً حقيقيّاً كبيراً أن نعلن انتماءنا إلى هذا المذهب الإنساني أو ذاك. . ولكن الانتصار الحقيقي هو أن نلتزم به ونتوحَّد مع معطياته. .

إنه (الجهاد الأكبر) مع الذات لإزالة الحواجز المقامة هناك، وانتزاع الرغبات والشهوات، وتطهير الساحة النفسية من كل ميل أو هوى. . الجهاد الأكبر كما علمنا الرسول عليه الصلاة والسلام أن يكون.

وإنه حقّاً لنقطة من أشد نقاط جيل الرواد المسلمين الذين صحبوا الرسول المعلم، وصنعوا التاريخ، ضوءاً وتألقاً. .

الجهاد الذي انتصروا فيه رغم معاناته المبهظة، فتوحدوا مع القيم التي نادى بها الدين الجديد، وقدروا ـ من ثم ـ على تغيير العالم. .

غيروا أنفسهم فتمكنوا من تغيير العالم. . ذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾. .

وفي مذكرات مدرِّسة عملت في خدمة ستالين[1] نلتقي بمواقف نقيضة لمسألة الالتزام والتوحد هذه. . يمارسها رجل يقبع في قمة الهرم الاشتراكي الكبير. .

ونقف وقفة سريعة عند اثنتين منها فحسب، قد تبدوان للوهلة الأولى مسائل عابرة لا أهمية لها. . ولكنهما بالإحالة إلى معادلة التوحد الصعبة تلك، تتكشفان عن عمق جديد.

---

(١) انظر كتاب: أفكار معاصرة، لأحمد بهاء الدين، ص ٢٨٦ ـ ٢٩٩.

تقول المدرِّسة الفرنسية التي استقدمت لتعليم أبناء ستالين: «.. قضيت اليوم التالي بين الحديقة والمكتبة الصغيرة، وقد اكتشفت فيها نسخة من قصة (الحرب والسلام) لتولستوي، وعلى هوامشها ملاحظات بخط ستالين.. خط كبير ولكنه منظم واضح. وكانت الملاحظات تحمل معنى التحامل على تمجيد الأبطال. ولاحظت تكرار جملة (خطأ اشتراكياً)...».

هل ثمة في التاريخ المعاصر، بل ربما في مساحات واسعة من التاريخ البشري، غير هتلر وموسوليني، من مارس في سلوكه وسياساته مفهوم البطولة الطاغية، وشرب كأسها حتى الثمالة، مثل ستالين؟!

والمجازر الجماعية التي نفذها.. وحصاد الملايين من أبناء أمته.. ما كانت في جانب من جوانبها سوى تعبير عن هذا التفرُّد الطاغي الذي يصل على يدي ستالين حد التألّه، وليس مجرد البطولة.. ولم تكن التصفيات الرهيبة التي كانت تأتي على شكل موجات إثر موجات، مجرد حماية للثورة ومبادئها من الأخطار والتحديات. لأن كثيرين من الذين ذُبحوا كانوا ـ باعتراف القيادات الحزبية والسياسية الروسية ـ من خيرة أبناء الحركة الشيوعية وزهرة روادها.. وصانعيها.. وكان بعضهم الآخر من أخلص أصدقائه وأقرب المقربين إليه.. بل إن إحدى الضحايا كانت زوجته الثانية نفسها!! وستالين، وهو يجلس إلى مكتبته الخاصة، يطالع في رواية (الحرب والسلام) ينسى هذا كله!! ويعلق بين صفحة وأخرى على أحداث الرواية متحاملاً على تمجيد الأبطال معتبراً إياه خطأً اشتراكياً!!

هل من تناقض بين الفكر والممارسة، أو السلوك، يمتد من الطول إلى الطول، كهذا التناقض؟!

ومن ثم نعرف كيف طمس على شخصية ستالين ميتاً.. كيف شرحت هذه الشخصية.. وكيف لم يبق لها حتى القبر الذي تأوي إليه، رغم الانتصارات الكبيرة التي حققتها لروسية..

لأن الذين جاؤوا بعده من كبار الحزبيين الذين عاصروه، وبقوا على قيد الحياة، يعرفون جيداً أنه بتفرده الطاغي ذاك كان يريد نفسه أولاً.. ثم الدولة والحزب ثانياً، وربما رابعاً أو خامساً، ومن ثم فليس من العدل والإنصاف أن يحكمهم حيّاً وميتاً..

وقد يخدع المؤرخون (الأكاديميون) يوماً، ممن يبهرهم العثور على الوثائق والأسرار، فيصدرون حكمهم (العلمي!!) عليه بأنه كان يكره تمجيد الأبطال.. لأنهم رأوا بأم أعينهم تعليقات (ذات قيمة!!) بقلمه شخصيّاً.. تعلن ازدراءها للبطولة.. مدونة بخط واضح كبير على هوامش نسخة من رواية لتولستوي (عثروا) عليها في مكتبته (الشخصية).. ويا له من اكتشاف (خطير)!!

لكن الذين عاصروه من رفاقه أنفسهم لم يخدعوا.. وكان رد الفعل قاسياً، لم يسلم منه حتى قبره..

وثمة جزئية صغيرة أخرى في مذكرات المدرِّسة الفرنسية لها دلالتها هي الأخرى..

إن المبادئ الليبرالية والاشتراكية و(التقدمية) عموماً، تدعي أن مكان المرأة ليس البيت، ودورها ليس طهي الطعام.. وأن علاقتها بالرجل ليست علاقة استعباد اقتصادي.. تلك مواقف رجعية يتحتم إلغاؤها إلغاء من قاموس المرأة وعلاقاتها بالعمل والرجل والمجتمع والحياة.. يجب أن تغادر المرأة البيت إلى العمل، والمطبخ إلى الدائرة.. ويجب أن تستقل اقتصادياً.. إلى آخر الديباجة المعروفة في (علم التقدمية)..

لكن الذي يحدث.. في بيت زعيم الاشتراكية.. ستالين.. شيء نقيض لهذه الدعاوى.. وتنفيذ للممارسات الرجعية إياها!!

«قال لي ستالين ـ تحدثنا المدرِّسة الفرنسية ـ: إن ما أطلبه منك هو تخفيف منهج الدراسة. لا أريد الإسراف في الكلاسيكيات.. لا كورنيل

ولا شكسبير.. إنك تقولين: إن (ابنتي) سفتلانا خارقة الذكاء.. حسناً علِّميها كيف تطهي الطعام»!!

وتواصل المدرسة الفرنسية حديثها: «.. بقيت أعتقد أن (ستالين) يرى أن دور المرأة الرئيسي هو قيامها على البيت. وأعلم أن زوجته الأولى ناديا أم الطفلين، رفضت ذلك. وقد كانت تعمل في أحد المراكز الزراعية، ولكن ستالين لم يكن راضياً أبداً في أعماقه عن هذا الاستقلال. وكان هذا سبب عدم توافقهما..».

ولا أظن الأمر يحتاج إلى أي تعليق!!

وفي كتاب (الحياة الخاصة لجوزيف ستالين) الذي ألفه الكاتب البجيكي (برنارد هاتون) واعتمد فيه على رحلاته الكثيرة الخالية من الرقابة في داخل الاتحاد السوفييتي، وعلى صلاته القوية بزعماء الكرملين «كانت علاقته وثيقة مع رادك وهو من أقرب المقربين إلى ستالين، وكذلك كالينين رئيس الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية. وكان يتردد على منتدى روزا كاجانوفتش زوجة ستالين الثالثة. أما أرملة لينين فقد زودته بكثير من المعلومات. كما كان إبل يينو كيدزا، أخلص أصدقاء ستالين، من أعز أصدقاء المؤلف».. ومما ساعده في إخراج مؤلفه هذا، الكتب الكثيرة التي ألفت عن ستالين ولم تتجاوز حدود روسية..».

في هذا الكتاب نستطيع أن نضع أيدينا على عشرات، بل مئات، الوقائع عن ازدواجية ستالين بين الفكر والممارسة. وإذ قد كتب عن هذه النقطة الكثير مما يعرفه الجميع، فإننا نكتفي هنا بإشارات سريعة عن أمور قد لا يعرفها الجميع.. منها قتله لزوجته الثانية ناديوتشكا بالسم، وإغراؤه في اليوم نفسه (!!) فتاة جميلة شابة كانت تعمل كاتبة في اللجنة المركزية على مرافقته إلى منزله، حيث أمضى معها ليلة حمراء (ص ٦٧).. ومنها إطلاقه الرصاص على زوجته الرابعة (يفجينا بافلوفاكي) وعشيقها (كوت كوف)،

ياور ستالين الخاص، بعد كشفهما متلبسين بالجريمة، رغم أنه هو نفسه كان يملك جيشاً من العشيقات، ولا يتورع عن خيانة عش الزوجية كل يوم (ص ١٠٠، ١٣٩).. ومنها: أنه بعد قتله زوجته الرابعة هذه «فقد البقية الباقية من ثقته بالنساء، وقرر ألّا يتزوج مرة أخرى مكتفياً بالعشيقات طوال عدة سنوات، كما طلب إلى سكرتيره الخاص أن يعد قائمة بأسماء الجميلات ممن يعملن باللجنة المركزية كي يقضي مع كل واحدة منهن فترة معلومة داخل حجرة خاصة ألحقها بمكتبه، وفي هذه الحجرة غرق ستالين، زير النساء، في بحر الخطيئة إلى شعر رأسه» (ص ١٣٩ ـ ١٤٠).

هذا عن ستالين حاكماً.. فماذا عن ستالين ثورياً؟

الهزيمة نفسها إزاء التوحُّد مع بداهات الثورة التي جاءت لكي تنصر الإنسان وتنصف المظلومين من الظالمين..

في إحدى أعوام العمل السري في جورجية اضطر ستالين، الذي كان يتستر تحت اسم (كوبا)، أن يلجأ متخفياً من مطاردة البوليس، إلى كوخٍ ناءٍ يمتلكه أحد أقارب زوجته، وهناك اختار الزعيم الثوري زوجة صديقه القروي المسكين عشيقة له «وليته قد اكتفى، بل اغتصب أخت القروي، ولم تكن قد بلغت من العمر عامها الرابع عشر. لذلك صمم القروي على الانتقام منه بإرشاد البوليس إلى المخبأ الذي احتمى به، ولكنه عاد فعدل عن رأيه مكتفياً بتأديبه بالعصا) (ص ١٧).

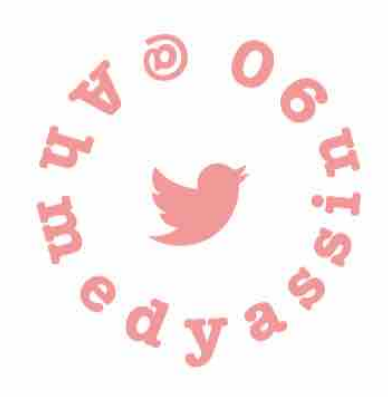
ليس هذا فحسب، بل إنه، وقد احتاج الحزب إلى المال «استطاع عن طريق الرفيق لاجوس كوريسكو، بائع المخدرات والأسلحة، وعن طريق العاهرات بائعات الهوى والجسد، أن يجمع الكثير من المال، بغضِّ النظر عن مصدره، وأيّاً كانت الوسيلة لجمعه وتحصيله... ولما سمع لينين بذلك كتب إليه يعنفه ويلومه قائلاً: إنني لا أوافقك على تلطيخ سمعة الحزب وتلويث

اسمه بالدعارة والفسق الذي أصبح تجارة رائجة، وإن كنت لا أنكر أننا في أشد الحاجة إلى أموال لتغذية الخلايا الثورية المجاهدة، إلا أنني أعتقد أن جمع المال يجب أن يتم بالطريقة التي تنزهنا، وترتفع على مستوى الشبهات واتهامنا بتسخير البغايا كوسيلة للحصول على مال من أجل العمل الثوري. بل إنه سيكون من المخجل للحزب، إذا طالعتنا صحيفة القيصر يوماً بإعلان مكتوب بالخط الكبير: زعيم البلاشفة القوقازيين يعمل قوّاداً!!» (ص ٢٧).

ولم يشأ لينين ـ هو الآخر ـ أن يتخلى عن هذا المورد الذي يخدم مالية الحزب، فاقترح على ستالين أن يجعل نفسه بمنأى عن هذه الأماكن المشبوهة، وأن يجمع المال عن طريق كوريسكو «وبذلك تكون بمنجاة من شبهة الاتصال بالفاجرات، وفي الوقت نفسه يتعين عليك أن تصرح للجميع بأن هذه الأموال قد تم جمعها من بعض العاطفيين على الحركة الذين لم يريدوا أن يذكروا أسماءهم..» (ص ٢٧ ـ ٢٨). أليس لينين هو نفسه صاحب مبدأ «اكذب واكذب حتى يصدقك الناس»؟! فها هو ذا يطلب من صديقه أن يكذب ويكذب لكي يصدقه الناس!!

ماذا كان جواب ستالين؟ «.. إنه لا يرى أي خطأ في استغلال محترفات البغاء، وأراد أن يبرر فعلته، فاستطرد قائلاً: إنني أساعد هؤلاء الفتيات على التمتع بالحياة تحت ظروف أفضل بكثير من الظروف التي كن يعشن تحتها من قبل، لأنهن يشفقن على أنفسهن من عرض أجسادهن في الشوارع خوفاً من البوليس. أما اليوم فإنهن يتمتعن بالحياة الهادئة في منزل اكتملت فيه أسباب الراحة والسعادة.. ومع ذلك فإن ستالين لم يختلف مع لينين في قوله: إن افتضاح هذه الحيلة سوف يلحق بالحزب ضرراً كبيراً، ولذلك فإنه وعد بتنظيم الأمور..» (ص ٢٨).

وأغلب الظن أن لينين اقتنع أخيراً بمنطق تلميذه البار.. ما دام أن كل الطرق تؤدي إلى... المال!!


@Ahmedyassin90

٢

صحافيات

في الذكرى الرابعة لثورة الموصل عام ١٩٥٩م

عرض لمقدمات الثورة

العوامل غير المباشرة:

كان العقيد عبد الوهاب الشواف آمراً للواء الخامس المرابط في الموصل، والذي كان يضم عدداً كبيراً من (الضباط الأحرار) الذين ساهموا في النصيب الأكبر من ثورة الرابع عشر من تموز عام ١٩٥٨م، وكان الاتفاق الذي تم بينهم قبل الثورة المذكورة هو أن يؤلف بعد نجاحها (مجلس ثورة) يدير أمورها في الفترة الحرجة التي تعقب كل ثورة. ولكن عبد الكريم قاسم لم يكن يريد مجلساً للثورة منذ البداية، وحاول أن يلقي التهمة على رفيقه عبد السلام عارف، وكان نتيجة ذلك تطورات متلاحقة في بغداد حركت مخاوف الضباط الأحرار، بدأت بمحاولات قاسم لإبعاد عارف، ثم اتجه الانحراف إلى الإذاعة والصحافة، وسمح للشيوعيين أن يلعبوا دورهم كأداة لتنفيذ برامج الفردية التي اعتزمها قاسم، فعين سليم الفخري وهو شيوعي قديم مديراً للإذاعة، وأصدر عبد القادر البستاني (الذي يشك بانتمائه للمخابرات البريطانية) جريدة (اتحاد الشعب) لسان حال الحزب الشيوعي!! كما أصدر عزيز الحاج قولي (الإيراني الأصل) وأحد مثقفي الحزب جريدة (صوت الأحرار)..

واتجه الانحراف إلى الجيش؛ فأعيد طه الشيخ أحمد الذي فصل سابقاً لاتهامه بالشيوعية، إلى الجيش ليتولى مديرية الاستخبارات العسكرية، كما أعيد العقيد الطيار جلال الأوقاتي، الذي كان مفصولاً هو الآخر لنفس السبب، وعين قائداً للقوة الجوية، وغدا وصفي طاهر (الظل الشيوعي) مرافقاً لعبد الكريم قاسم بعد أن كان مرافقاً لنوري السعيد!! وأصبح هو المتصرف في شؤون الجيش، فالتنقلات بيده والتحركات بأمره، والترفيعات تعرض عليه.

هذه الأحداث كلها كانت مثيرة لشكوك الضباط الأحرار؛ حيث كانوا يعتقدون في البداية أن عبد الكريم قاسم لا يعلم بالذي يجري من حوله، وأنه لا بد أن يسافر إليه الشواف ليطلعه على حقيقة الأمور. وسرعان ما سافر الشواف إلى بغداد والتقى بقاسم وأفضى إليه بحقيقة الموقف، فقال له قاسم: إنه لا يحس بأي خطر، ولكن عبد السلام عارف هو الذي اضطره إلى التحالف مع الشيوعيين، ثم قال: «يا عبد الوهاب، انتظر أن يخرج الشيوعيون عن الخط حتى أكسر رؤوسهم»!! وأدى هذا التصريح إلى نوع من الاطمئنان في صفوف الضباط الأحرار في الموصل. ولكن الانحراف راح يزداد عمقاً وخطورة، فالإذاعة غدت بوقاً للشيوعيين، وعبد السلام اعتقل، وأبعد عبد العزيز العقيلي (قائد الفرقة الأولى) كسفير في طهران، واستقال الزعيم ناجي طالب، وعين عبد اللطيف الدراجي آمر الكلية العسكرية في وظيفة إدارية بوزارة الدفاع، وأصبحت محاولات فصائل (المقاومة الشعبية) للاعتداء على العناصر غير الشيوعية وسيلة هامة بأيدي الشيوعيين.. كذلك كانت الحال بالنسبة إلى محكمة المهداوي التي اعتمدت التهريج والإرهاب أسلوباً في العمل.

استقر رأي الضباط في الموصل على أن يذهب الشواف ثانية إلى بغداد لمحادثة (الزعيم) عن هذا الانحراف الذي يهدد مستقبل العراق، إذ كانوا

على اعتقادهم السابق بأن الزعيم في معزل عن الأحداث، وأنه لابد من إطلاعه على حقيقة الانحراف.. إلا أن الشواف لم يحصل هذه المرة على نتيجة.. بينما راح النشاط الشيوعي يحاول أن يجد له منطلقاً في الموصل. ففي الاحتفال الذي أقامه الأهالي في ذكرى الجلاء عن بور سعيد حاول الشيوعيون إفساد الحفل، ثم وزَّعوا في اليوم التالي منشورات ضد الجمهورية العربية المتحدة. وكان رأي الضباط منع توزيع هذه المنشورات، فجاء كامل قزانجي، أحد زعماء الشيوعيين في الموصل، إلى مقر القيادة يحتج على مصادرة الجيش للمنشورات ثم قال: «إننا سوف نسلخ سورية عن مصر»!! وبناء على هذه الأحداث ذهب الشواف مرة ثالثة إلى بغداد وقابل الزعيم ولم يحصل منه على شيء.

وفجأة بدأت حملة مركزة ضد الفرقة الثانية التي يقودها ناظم الطبقجلي، وضد لوائها الخامس في الموصل بالذات، وراحت صحف الحزب الشيوعي في بغداد تطالب بتطهير الفرقة الثانية وقيادة اللواء الخامس من الضباط (غير المخلصين للجمهورية وللزعيم)، ومضى الهجوم إلى حد اتهام اللواء بالعمل ضد مصالح الشعب والتآمر على سلامة الجمهورية[1]. ولم يقتصر الهجوم على العناصر المناهضة في الجيش، وإنما تعداه إلى توجيه سلسلة من الاتهامات ضد القوى الشعبية التي وقفت بوجه التيار الشيوعي الذي حوى في طياته الكثير من الانتهازيين والطائفيين والصليبيين والشعوبيين وعملاء الاستخبارات البريطانية.. وجاء في إحدى تلك الهجمات: «إلى متى التساهل حيال العصابات المعادية للجمهورية؟! مجرمون يرتكبون الاعتداءات النكراء.. قبل أكثر من أسبوع تناولنا بالبحث أعمال شراذم تافهة في الموصل، وألوية أخرى تفاقم نشاطها التخريبي، وعبثها بالأمن والنظام وحياة المواطنين، وأوضحنا أن هذه الشراذم تستند إلى تشجيع بعض

(١) محمود عزيز، جريدة الحرية البغدادية، العدد ١٧٠٤، ٨/ ٣/ ١٩٦٣م.

المسؤولين الذين لم تمتد إليهم ـ بعد ـ يد الثورة بالتأديب، كما وتستغل تساهل الحكومة الوطنية أبشع استغلال للإيغال في جرائمها النكراء.. إن سياسة اللين والتساهل إزاء المجرمين والخونة لا يمكن إلا أن تسيء إلى النظام والاستقرار في البلاد.. إن العناصر المعادية بطبيعتها للجمهورية والحاقدة على سياستها، وتلك التي سخرها المستعمرون وحكام العهد البائد؛ قد برهنت على أن من غير الممكن إصلاحها وردّها إلى جادة الصواب.. إن الشعب كله ليأمل أن تلتفت حكومة الثورة وزعيمها إلى هذا كله، فتشدد الحزم وتضع حدّاً نهائياً للفعاليات الرجعية المسعورة»[١]!!

العوامل المباشرة:

تلك هي ـ بإيجاز ـ الخطوط العريضة للعوامل غير المباشرة في قيام ثورة الموصل، ونجيء من ثم إلى العوامل المباشرة:

(١) أحداث مسبقة:

في الأيام التي سبقت انعقاد مؤتمر (أنصار السلام) في الموصل بتاريخ ٦/ ٣/ ١٩٥٩م شهدت المدينة سلسلة من الأحداث والاستفزازات جعلت الحالة فيها على درجة كبيرة من التوتر، وخرجت في الخامس من آذار حشود من جماهير الموصل واتحاد الطلبة ونقابات المعلمين والعمال لتوديع قائد قوات المقاومة الشعبية العقيد طه البامرني في محطة قطار الموصل، «وقد هتفت الجماهير بحياة زعيم البلاد والجمهورية الديمقراطية ومحكمة الشعب العادلة، وكانت تردد: مقاومة شعبية فلتسقط الرجعية»[٢]. وتقول جريدة اتحاد الشعب: «يجدر أن نشير هنا إلى بعض الأحداث التي تلقي ضوءاً على (المؤامرة)؛ فقبل مهرجان السلام كانت هناك شائعة روَّجها

(١) جريدة اتحاد الشعب، العدد ٣٥، السنة الأولى، ٨/ ٣/ ١٩٥٩م.

(٢) جريدة اتحاد الشعب، عدد ٣٤، السنة الأولى، ٦/ ٣/ ١٩٥٩م.

القوميون والرجعيون؛ تقول: إن مذبحة ستقع يوم السادس من آذار، ويحثون الأهلين على الخروج من الموصل، وفي صباح اليوم نفسه وضع الجيش تحت الإنذار (جميع القطعات)... وكان (الضباط) يترددون باستمرار على كتيبة الهندسة، وأشيع في الوقت نفسه بأن مؤامرة على الجمهورية قامت بالاستعانة بحامية عقرة، وجاء طلب من الحاكم العسكري العام يقضي بتوجه (بعض ضباط اللواء الخامس) فلم يتوجَّهوا»[١].

إن المواقف المعلنة والسرية التي اتخذتها قوى الجيش والشعب المعادية للشيوعية؛ هي التي أسهمت إلى حدٍّ كبير في تهيئة الظروف للتعجيل في إعلان الثورة وعدم التريث في انتظار الموعد المتفق عليه مع سائر التنظيمات العسكرية في بغداد وبقية المناطق الأخرى.. فقد منع الضباط الأحرار في الموصل الشيوعيين من إقامة احتفالاتهم في عدة أماكن، كما منعوا المظاهرات الشيوعية وأوقفوا تسلل الشيوعيين إلى المقاومة الشعبية، وأعطوا المجال ـ من جهة أخرى ـ للعناصر العربية المسلمة للقيام بمظاهرات تعبر فيها عن وعيها وإرادتها، وتطرح شعاراتها في الوقوف بوجه التيار الشيوعي المخرب والدكتاتورية الفردية، وقام الضباط بتوزيع الأسلحة على بعض هذه العناصر، وسمحوا لها بعقد الاجتماعات لنشر وعي الصمود والمقاومة، ولتفتيح الأذهان على الخطر (الأحمر) الذي بدأ يلتهم العراق..

ما لبث تخوف الشيوعيين في الموصل من اتساع نشاط القوى المناهضة أن تمخض عن تخطيط (مؤامرة) ضد أهالي المدينة وضباطها من أجل القضاء على روح المقاومة وتحطيم معنوية السكان هناك.. ولم تكن تلك المؤامرة سوى إقامة مهرجان (لأنصار السلام) في قلب المدينة، بالاتفاق مع عبد الكريم قاسم، وتبدو نوايا مخططي المحاولة واضحة في صحفهم التي أكدت بأن جماهير أنصار السلام تزحف (لغزو) الموصل!!

---

(١) اتحاد الشعب، عدد ٣٨، سنة أولى، ١١/٣/١٩٥٩م.

(٢) مؤتمر أنصار السلام:

أعلن الحزب الشيوعي باعتزامه عقد مؤتمر للسلام في الموصل، وأن أربعة قطارات ملأىٰ بأعضاء الحزب ومؤيديه سوف تتجه من بغداد إلى هناك. واتصل الشواف في الثاني من آذار بمدير الاستخبارات العسكرية في بغداد بالهاتف، وقال له: إن الموقف خطر.. إن شعور الضباط والشعب في الموصل مشحون، ومجيء هذه (الحملة) من الشيوعيين بالقطارات والسيارات والطائرات إلى الموصل تحدٍّ سافر لهذا الشعور. وهل لم يجد الشيوعيون مكاناً لعقد مؤتمرهم غير الموصل؟! ولم يحصل الشواف على نتيجة، فاتصل بقاسم وقال له: سيادة الزعيم! إنني أناشدك أن تصدر الأمر بمنع هذا المؤتمر الشيوعي في الموصل. إنهم قادمون بأسلحة كثيرة، وأخشى عواقب أي حادث قد يؤدي إلى صدام واسع. وقال عبد الكريم: سوف أبحث الأمر وأتصل بك.. وبعد ساعة دق جرس الهاتف طالباً الموصل وعليه وصفي طاهر مرافق الزعيم، وقال للشواف: إن المؤتمر سوف يعقد في موعده (السادس من آذار)، وإن الزعيم يحملك ـ كقائد عسكري للمنطقة ـ مسؤولية أي شيء يحدث[1]!!

لقد كان الشيوعيون وقاسم يتوقعون ـ من جانبهم ـ قيام حركة ما في الموصل، وإن القوى الشيوعية فيها لا تستطيع وحدها أن تقف على قدميها، فما هي أحسن خطة إذن؟ لقد استعاروا من تجارب الحزب الشيوعي الإيراني (توده ـ إيران) ما كان يقوم به من تحشيد لقواه وأعضائه وأنصاره، وتجميعهم في مدينة واحدة لا قوة له فيها ليعقدوا اجتماعاً، أو يسيروا في مظاهرة كي يرهبوا خصومهم ويشتبكوا معهم في معارك، ثم يستنجدون بالسلطة لحمايتهم من (الرجعيين).. وهكذا أعلنوا عن (مهرجان السلم في الموصل)، ودعوا جميع منظماتهم الحزبية كي تعمل جهدها لتسفير أنصار

(١) الحرية، العدد ١٧٠٤، سنة ١٠، ٨/٣/١٩٦٣م.

السلام إلى هناك. وساهمت حكومة قاسم مساهمة فعَّالة في التحضير للمهرجان، وإسناده بأن خفضت أجور القطارات، وسيَّرت عدداً منها إلى الموصل في الخامس من آذار لتحمل وفود السلام القادمة من مختلف الألوية. وقد ضمت هذه الوفود ـ كما هو مقرر ـ عناصر قيادية من الحزب الشيوعي لتشرف بنفسها على عملية الإرهاب والتخويف والتحدي[1].

كان الشواف قد أوكل إلى أحد الملازمين مراقبة الموقف في المحطة؛ حيث كان قد أعد السيارات العسكرية المصفحة جوار المحطة خشية حدوث ما لا تحمد عقباه.. وانطلقت الوفود (الغازية) إثر وصولها إلى شوارع الموصل تهتف للزعيم والديمقراطية والسلم، بينما انسحب الأهالي إلى بيوتهم وأغلقوا حوانيتهم في احتجاج جماعي على عملية (الغزو) التي تتم بإشراف الحكومة، وسعوا إلى الامتناع عن تموين الألوف القادمة من أنحاء العراق بالطعام وتجويعهم وإذلالهم معنوياً.. بينما تمركز بعض (المسلحين) منهم في أماكن ونقاط عديدة من البلد، وأيديهم على الزناد لكي يضغطوا عليه إذا ما اقتضى الأمر.. والأطفال والنساء ساهموا في عملية الاحتجاج بأن قذفوا بعض السيارات القادمة بالأحجار والأقذار ونداءات التهكم والسخرية.. أما قيادة اللواء الخامس فقد سعت جهدها للحفاظ على الأمن، ولتجنب اشتعال النار المحرقة في هشيم يابس ينتظر شرارة واحدة.

وفي إحدى ساحات المدينة تم عقد اجتماع (جماهيري) موسَّع، ألقيت فيه الخطب والكلمات الحماسية في الدعوة إلى السلم العالمي، وتوسيع قواعده في كل مكان!! وهناك في (دير ماركوركيس)، المعبد المسيحي الكاثوليكي (المسالم!!) القابع في ضاحية المدينة، تم عقد اجتماع آخر، أضيق نطاقاً، لكنه أشد تركيزاً، ضم نخبة كبيرة من قيادات وأعضاء وأنصار

---

(١) عبد الله أمين، الحرية، العدد ١٧٠٤، سنة ١٠، ٨/٣/١٩٦٣م.

الشيوعية، وحشداً من الانتهازيين والشعوبيين والصليبيين، حيث رسمت الخطط لمجابهة المعارضة المتزايدة في الموصل و(تطويعها) للمد الجديد..

وهكذا كان مؤتمر (أنصار السلام) مخططاً لتحطيم معنويات أهالي الموصل، وإرهابهم بقذف هذه الحشود الضخمة من أنحاء العراق في قلب مدينتهم، وخلق نوع من التحدي الخطير للقوى الصامدة بوجه الطغيان الشيوعي والانحراف القاسمي؛ أريد منه أن يؤدي إلى انفجار مباشر تنكشف من خلاله القوى المناوئة من أجل أن يغدو (سحقها) أمراً ميسوراً.. وبالفعل فقد برزت بسرعة مجموعة خطيرة من ردود الفعل على المستويين الشعبي والعسكري في اليوم التالي، وكانت العامل المباشر الآخر في إشعال الثورة.

(٣) أحداث السابع من آذار:

كان السابع من آذار يوماً قلقاً متوتراً، ساد جو المدينة فيه غموض مخيف، وانطلقت مجموعات مسلحة من المتظاهرين من كلا الجانبين، جانب يهتف للزعيم وللجمهورية كواجهات لمبادئه الشيوعية، وجانب يهتف للإسلام والعروبة كمبادئ وروابط أصيلة تأبى الذوبان في التيار الوافد.. وحدثت نتيجة ذلك سلسلة من المصادمات في أماكن مختلفة من المدينة أطلق في بعضها الرصاص، وسقط عدد من القتلى والجرحى، فاضطرت قيادة اللواء الخامس إلى أن تصدر أمراً بمنع التجول منذ الساعة الرابعة من مساء اليوم المذكور، حيث لجأ معظم الناس إلى بيوتهم بانتظار ما سيجد من أحداث.

والحق أن القوى المناهضة للشيوعية بذلت خلال هذا اليوم جهوداً واسعة في إثبات مقدرتها على التحدي والصمود في أعقاب مؤتمر أنصار السلام. وقالت جريدة (اتحاد الشعب) لسان حال الحزب الشيوعي العراقي: «.. في السابع من آذار قامت تظاهرة رجعية من محلة (النبي

شيت)، الساعة الثانية بعد الظهر، متجهة إلى شارع (الفاروق)؛ حيث أحرق المتظاهرون مقهى (أحد الشيوعيين)، وأطلقوا النار على من فيه، فسقط عدد من الجرحى.. ثم جاءت سيارة فيها رجلان يحملان الرشاشات، فاندفع الجمهور على السيارة وأحرقها.. ولم يجد (الوطنيون) بدّاً من إخبار مدير الشرطة السابق عن هذا الحادث، ولكن هذا المدير ادَّعى أنه ليس من صلاحيته التدخل في الأمر، وعليهم أن يتصلوا بآمر الموقع فقال: إن هذا من صلاحية مدير الشرطة، وعاد المواطنون ثانية إلى المدير، فحوَّلهم إلى معاوني المراكز. وانطلقت تظاهرات الجماهير محتجة على هذه الأعمال، وتعرض بعضها للضرب برصاص المسدسات والرشاشات»[1].

ومن جهة أخرى قام ضباط اللواء الخامس خلال هذا اليوم بحملة اعتقالات واسعة، شملت قادة الشيوعيين وأنصار قاسم من ضباط كتيبة الهندسة الموالية (للجمهورية)، كما تناولت عدداً كبيراً من ممثلي الهيئات القيادية للمنظمات الشيوعية المختلفة. وخلال ساعات منع التجول التي فرضت على المدينة ـ نتيجة حدوث عدد من الاصطدامات من جهة، وللتحضير للثورة بإعطاء فرصة مناسبة من الهدوء من جهة أخرى ـ في هذه الساعات تمت السيطرة من جانب الثوار على مشاجب الأسلحة ومراكز الشرطة والمواقع الحساسة في المدينة، ونسقت عمليات التعاون بين القيادات العسكرية والمدنية، ولم يبق سوى فاصل زمني قصير لإعلان (الثورة).

هل كانت الثورة مخططة؟

يكتنف الغموض والتناقض معظم أجوبة الأشخاص الذين تصدوا لسؤال كهذا، فالحركة، كما تبدو في الظاهر، وليدة ظروف محلية وعوامل مباشرة فحسب، والتخطيط العسكري لها يشير إلى مقدار غير قليل من الارتجال

---

(١) اتحاد الشعب، العدد ٣٨، سنة أولى، ١١/٣/١٩٥٩م.

وعدم التنظيم، وفقدان السيطرة على العمليات والتحركات العسكرية؛ وموقفها من القوى الشعبية في المدينة ـ كما يبدو في الظاهر ـ يشوبه كثير من التأرجح وعدم التنظيم.. كما أن الواجهة السياسية للثورة تبدو سطحية لا ترتبط بجذور عقائدية محددة. هذا هو ظاهر ثورة الموصل.. ولكن بمجرد تعمق ظروفها، والعوامل البعيدة التي فجرتها، نستطيع إدراك القسط الكبير من التخطيط الذي قدر للثورة أن تناله. فظروفها ليست محلية بقدر ما هي متعلقة بمصير قطر كامل، لا بل بمستقبل أمة..

ولم تكن هذه الظروف المحلية سوى (الشرارة) التي أشعلت الثورة. أما العوامل الأساسية فهي عقائدية سياسية تبتدئ في المحاولات الواسعة التي استهدف الحزب الشيوعي من ورائها السيطرة على مقدرات العراق، وربط مصيره بعجلة الحركة الشيوعية العالمية من جهة، وفي محاولات عبد الكريم قاسم للتفرد بالسلطة، وتعزيز الوجود البريطاني غير المباشر في العراق، وعزله عن أية محاولة تستهدف تضامن العرب ووحدتهم. إلا أن التخطيط العسكري للثورة كانت تعوزه (السرية)، الأمر الذي سهل على القواعد العسكرية أن تنقضّ على قياداتها، كما سهل على السلاح الجوي في بغداد أن يقضي بقنبلة واحدة على مركز القيادة، ويسوق الشواف إلى حتفه، وقد لعبت أهواء الجنود وتقديس بعضهم ـ لأسباب شتى ـ لشخصية (الزعيم) دوراً كبيراً في إرباك وعرقلة تنفيذ الأوامر الصادرة من القيادات إلى القواعد، وكان على القيادة أن تقوم قبل إعلان الثورة بحملة توجيه لنشر الوعي الإسلامي بين الجند وضباط الصف، وفتح أعينهم على التضاد الحاسم بين قيم الإسلام وأخلاقياته وعقيدته وبين القيم والأخلاقيات التي يدعو الشيوعيون إليها ويمارسونها فعلاً.. لقد حدث شيء من هذه الحملات التوجيهية كما أشارت بذلك محاكمات (المهداوي)[1]، ولكنها كانت على نطاق محدود.

---

(١) انظر: مجلدات محكمة الشعب الخاصة بثورة الموصل.

ورغم ذلك فإن الاتصالات العسكرية بين المراكز المختلفة في الشمال، في الفترة الطويلة التي سبقت إعلان الثورة تشير إلى تهيئة (مخطط) عسكري سابق على القيام بالثورة. وقد أشارت جريدة (اتحاد الشعب) إلى أن (مؤامرة) الموصل لم تكن ذات طابع مباغت، بل كانت الاجتماعات يتوالى عقدها بين العسكريين في حامية عقرة، والعسكريين في حامية الموصل[١]. وقال (محمود الدرة) أحد المشاركين السياسيين في الثورة: «إن الدعوة التي قيلت بأن ثورة الموصل كانت عملاً مرتجلاً لا تخلو من تجنٍّ بالغ على الثورة وعلى قادتها، وعندما يحين الوقت لكشف أسرار الثورة كاملة سيعرف الرأي العام العربي الجهود التي سبقت إعلان الثورة، وما تم من اعداد تفصيلي لها، وما اتخذ من إجراء لتأمين سلامتها ونجاحها... ثم معرفة الأسباب التي أدت إلى إحباطها وعدم تنفيذ صفحاتها كاملة... يتضح عندئذ بأن ثورة الموصل كانت ثورة مدروسة وضعت تفاصيلها بدقة»[٢]. ولا ننسى هنا النشاط الواسع الذي قام به ضباط الثورة لتوزيع الأسلحة على المدنيين الذين عهد إليهم حراسة المدينة وقطع الطريق على الشيوعيين ومؤيدي نظام الحكم القائم، وقد لعبت هذه العناصر المسلحة دوراً واضحاً في تأمين المدينة وحماية ظهور العسكريين.

فإذا ما جئنا إلى برنامج الثورة السياسي ووجهتها العقائدية أمكننا أن نتلمسهما في البيان الأول الذي أعلن غداة الثورة، والذي جاء فيه: «أيها المواطنون... لم يدر بخلد جيشنا ولا بخلدكم أن يحل طاغية مجنون محل طاغية مستبد، وتزول طبقة استغلالية جشعة لتحل محلها فئة غوغائية تعبث في البلاد والنظام والقانون، ويستبدل مسؤولون وطنيون بآخرين يعتنقون مذهباً سياسياً لا يمت لهذه البلاد العربية الإسلامية العريقة بمصلحة... وأن

(١) عدد ٣٩، سنة أولى، ١٢/٣/١٩٥٩م.
(٢) الحرية، عدد ١٠٤٧، سنة ١٠، ٨/٣/١٩٦٣م.

تغدو بلادنا الوفيرة الخيرات مسرحاً للفوضى والبطالة، فيتحطم اقتصادها الوطني، وتتعطل مشاريعها العمرانية، وتنتزع الثقة من النفوس، ويختفي النقد من الأسواق، وتعبث بالبلاد مقابل ذلك كله فئة ضالة... لا دين لها ولا ضمير؛ تخلق لها صنماً.. وتعبده، ولا تخشى الله، وتنادي به ربّاً للعالمين.. وبعد مشاورتنا مع سائر العناصر السياسية المخلصة عزمنا.. على تحرير وطننا الحبيب من الاستعباد والاستبداد، وتخليصه من الفوضى، و(العمل) على حسن تنفيذ وتطبيق قانون (الإصلاح الزراعي) وغيره من القوانين التي تكفل تحقيق عدالة اجتماعية شاملة.. والقضاء على السياسة الغوغائية التي أخذت تمارسها فئة ضالة من شعبنا؛ لكي يسود النظام وحكم القانون في أرجاء وطننا الحبيب.. وإننا إذ نتبنى سياسة الحياد الإيجابي الدقيق إزاء الدول الأخرى، نصادق من يصادقنا ونعادي من يعادينا»[(١)].

ومن ثم نجد في هذا البيان، بوضوح، الأبعاد العقائدية والسياسية لثورة الموصل.. فهي ثورة على الدكتاتورية والاستغلال، كما أنها ثورة على طغيان فئة ملحدة، انتهازية، عميلة لا تنسجم بأي حال من الأحوال ولا تتجانس مع مقومات شعبنا المسلم العربي.. وهي ثورة على الأوضاع الاقتصادية المنهارة، والقوانين المعطلة، والغوغائية المسلطة على رقاب الناس من قبل (الفئة الضالة).. كما أنها ثورة من أجل قيادة عادلة غير مستبدة، ومبادئ تنبعث من صميم قيم الأمة وأعرافها، وتنسجم مع ظروفها التاريخية العريقة، ومن أجل إيجاد اقتصاد راسخ متطور، وتحقيق عدالة اجتماعية ينعم في ظلها الجميع.. وهي في المجال الخارجي ثورة على التبعية من أجل الالتزام بمبادئ الحياد الإيجابي وعدم الانحياز.

ولسنا هنا بصدد استعراض أحداث الثورة أو تحليل الأسباب التي أدت إلى فشلها، وهي كثيرة، منها ما هو عام يتعلق بموقف الجمهورية العربية

---

(١) انظر البيان كاملاً في جريدة لواء العروبة البغدادية، عدد ٦، سنة أولى، ٨/ ٣/ ١٩٦٣م.

المتحدة، والاستراتيجية التي لم تعتمد العاصمة كمنطلق أو ظهير (مرافق) زمنياً للحركة، ومنها ما هو محلي يتعلق بضعف جهاز الإرسال، والتهاون في معاملة قادة الشيوعيين في المدينة، وعدم شمول العناصر المدنية بالسلاح، والتردد في قصف المراكز الحساسة في العاصمة بالقنابل والصواريخ، وانتقاض بعض قطعات اللواء الخامس على الثورة، وقيام شيوعيي الموصل بمجزرتهم المضادة الشهيرة، وإبادتهم (الجماعية) للمواطنين، وإرهابهم الأحمر عن طريق سلسلة من عمليات النهب والقتل والسحل والإعدام..

إلا أن القضية التي لا بد من الإشارة إليها هي: أن الخطأ الكبير الذي مارسه الشواف بتسرعه في إعلان الثورة قبل الموعد المتفق عليه مع سائر رفاقه في بغداد وبقية مناطق العراق؛ الأمر الذي أحدث ازدواجاً في التحرك، وإرباكاً في موقف كبار القادة العراقيين، وبخاصة الشهيدين ناظم الطبقجلي ورفعت الحاج سري.. هذا (الخطأ) هو العامل الأساسي الذي أودى بمصير الثورة والثوار، وساق زهرة الضباط المؤمنين ومئات من المواطنين الأبرار إلى حتوفهم وسط عاصفة من الإرهاب الأحمر والدكتاتورية الطاغية..

لكن الذي ألقى العزاء في أفئدة المهزومين يومها إيمانهم العميق.. العميق.. بأن الدم الذي نزفته أجساد الثائرين سيظل يلتهب كالنار لكي يسير على وهجه الأبدي الممحّص كل الذين آلوا على أنفسهم أن يحموا عقيدتهم وعروبتهم وتاريخهم وقيمهم إزاء عوامل التحلل والإفناء التي تحيق بها.. أو أن يموتوا..

(١٩٦٣)

الإرشاد
الذي يمشي على رأسه

الذي يلفت النظر في موضوع التربية والتثقيف والإعلام في البلاد العربية: أن مناهجها لم تتبدل تبدلاً جذريّاً مستمداً من وجهة نظر جديدة، رغم التقلبات السياسية التي مرَّت بها هذه البلاد طيلة العقود الأخيرة من هذا القرن. ولو ألقينا نظرة جادة على هذه المناهج لأدركنا أن جذورها وخطوطها العريضة وضعت على أيدي أولئك الذين سلمهم الاستعمار الإشراف على هذه الأجهزة أيام سيطرته المباشرة على البلاد.

فلقد أدرك المستعمرون أن أمضى الأسلحة التي يمكن استخدامها لإبعاد الأجيال الناشئة عن الإسلام: تصوراً وسلوكاً وعقيدة ونظاماً وأخلاقاً، هي فرض مناهج تربوية وتثقيفية مستمدة من النظرة الغربية العلمانية ـ وأحياناً المادية الإلحادية ـ للحياة والوجود. فعن طريق (تلقين) الأجيال الصاعدة منذ عهد الطفولة ـ وفي مرحلتي المراهقة والشباب ـ هذه النظرة، سواء بخطوطها العريضة أم بجزئياتها وتفاصيلها، حقق المستعمرون أهدافهم في فرض استعمار فكري قاسٍ شمل معظم نواحي الثقافة والتربية في البلاد العربية ورسم الخطوات الأولى الثابتة للاستعمار الجديد (الإمبريالية).

وهكذا وضعت مناهج دراسية مسمومة ومنحرفة، ونصب في الأجهزة التربوية والتعليمية رجال لهم ماضيهم وأفكارهم المنسجمة مع ما يهدف إليه الاستعمار، ودعم هؤلاء الرجال بعدد من المثقفين العرب الذين (تمغربوا) على أيدي بعض المستشرقين الذين ـ مهما ادعوا من علمية وموضوعية في

أبحاثهم ـ فإن لهم من ورائها أهدافاً مخططة مرسومة تهدف إلى تشويه الأسس العقائدية والتشريعية والأخلاقية للإسلام، كما تهدف لتشويه التاريخ الإسلامي، وبخاصة تلك المراحل التي ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بهدي الإسلام ومبادئه الشاملة.

وليس أدل على سلبية هذه المناهج وتوجيهها الاستعماري من جعلها مركز الثقل فيها العمل على ترسيخ النظرة الغربية الجاهلية للحياة في أفكار الشباب، وتشويه القيم والتصورات الإسلامية في أذهانهم، من جهة، وعدم التأكيد على تخريج عدد من الفنيين الصناعيين (التكنولوجيين) الذين يمتلكون القابلية على الابتكار والاختراع، أو على الأقل تفهم الأسس الفنية المتطورة للحضارة الصناعية المعاصرة، من جهة أخرى. وهكذا فإن بقاء هذه المناهج الهدَّامة طيلة هذه الفترة، وبالرغم من كل الثورات في البلاد العربية، يثير تساؤلات كثيرة عن (السبب) في عدم إحداث تبديل أساسي في المناهج التربوية والثقافية في العالم العربي؟!

ومما يزيد سلبية هذا التوجيه إسهام أجهزة الإرشاد القومي في تأكيده وتعميقه... فالبرامج الإذاعية والتلفزيونية والسينما والمسرح والصحافة التي تلتزمها أجهزة الإرشاد العربية تقوم بدور كبير في بثِّ الأفكار الغربية في الأجيال الصاعدة، وتبعدهم بإصرار عن كل تصور أو سلوك إسلامي. والذي يدعو إلى الرثاء ـ أو إلى السخرية ـ تسمية الإرشاد هذا بالإرشاد القومي، وما هو في الحقيقة سوى إرشاد إلى قيم غربية منحرفة، وسلوك متحلل تميز به الإنسان الأوروبي، وتمزق نفسي يعانيه كل من يرفض الالتزام بعقيدة، ونظرة عبثية إلى الكون والحياة انبثقت هناك في أعقاب الصراع العنيف بين الدين والحياة..... لذا.. فهو إرشاد (معكوس) يهدف إلى القضاء على كل المقومات التي تميز أمتنا المسلمة عن سائر الأمم التي ذابت في أتون الحضارة الغربية، وفقدت كيانها وشخصيتها.

وتقوم ثورات وانقلابات وتسقط ثورات وانقلابات، وبرامج وزارات التربية والتعليم والإرشاد العربية هي، هي.. لا تتبدل ولا تتغير باتجاه ما يحدث انسجاماً مع مشاعر جماهير أمتنا، ويحقق أهدافها الملحة في إيجاد تربية وتثقيف وإرشاد يحقق لها الفرص الواسعة للتعرف على عقيدتها الإسلامية، والتشبع بروحها التي تحقق للإنسان الفرد أمنه الذاتي وسعادته، وللمجتمع العدل والتقدم والوحدة.. وبالتالي توجيه أمتنا المسلمة توجيهاً يضمن احتفاظها بمقوماتها وشخصيتها، ويعرفها بالعناصر التي يمكن أن تقتبسها من الحضارة الغربية والعناصر التي يجب الاستغناء عنها، كي تعود فتحتل المركز الذي أراده لها الله سبحانه: أمة وسطاً تشهد على البشرية، ويكون القرآن والرسول عليها شهيدين..

وتجدر الإشارة ـ هنا ـ إلى الجهود التي بذلها بعض المفكرين الإسلاميين في الكشف عن المخططات الاستعمارية لإبعاد أبناء الأمة الإسلامية عن عقيدتهم بواسطة أجهزة التربية والإرشاد، وعرض وجهة نظر الإسلام في هذا المجال.. ومن بين هذه الجهود: (الإسلام على مفترق الطرق) لمحمد أسد، (منهج جديد للتربية) للمودودي، (منهج التربية الإسلامية) لمحمد قطب، (الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي) لمحمد البهي، (التبشير والاستعمار في البلاد العربية) لفروخ والخالدي، (موقف العالم الإسلامي تجاه الحضارة الغربية) للندوي، ومؤلفات مالك بن نبي ومحمد محمد حسين، فضلاً عن الوثيقتين الخطيرتين اللتين تكشفان محاولات الصهيونية والتبشير في هذا المجال؛ وهما (بروتوكولات حكماء صهيون)، و(الغارة على العالم الإسلامي) لشاتلييه... ولن يقدر لأي مثقف أن يطلع على المعضلة في سائر أبعادها إلا بقراءة هذه المعطيات.

(١٩٦٤م)

مَفرَق الطّريق..

في وطننا الإسلامي اليوم صراع عقائدي رهيب بين مبادئ شتى؛ كل منها يطمح إلى الانتصار ليحكم المجتمع (المنشود).. وقد تلتقي بعض هذه المبادئ المتصارعة في الظاهر، إلّا أنها أساساً متناقضة أشد التناقض، الأمر الذي يعني أن انتصار أي منها كفيل بتوجيه ضربة قاصمة للمبادئ الأخرى وإبعادها عن ساحة الصراع وواقع الحياة.. مما يحتم على كل داعية مسلم عرض المفاهيم الأساسية للإسلام على الجماهير الواسعة التي هي قاعدة الحركات والثورات، وتفنيد ما في المبادئ الوضعية من مظالم وانحرافات وجهل بحقيقة الإنسان وطبيعة الحياة، مما لا يستقيم معهما أي مبدأ إلاّ أن تحرسه قوى النار والحديد!!

إن نهاية الشوط في هذا الصراع لابد وأن تكون للمبدأ الأكثر شمولاً والأعمق إدراكاً لطبيعة الإنسان والحياة.. وهذا لا يكون إلا بعرض (إنسانية) فكرتنا وتحليل أبعاد نظرتها للإنسان والعالم، وتبيان عناصر الهدم وعدم الانسجام في المبادئ الوضعية، ونقل تلك الإيضاحات جميعاً إلى الشوارع والساحات والميادين، حيث تتجمع الجماهير منتظرة الإشارة المناسبة لتتحرك وتنجز فعلها في ساحة التاريخ.. فإن لم نفعل فإن باستطاعة الآخرين من ذوي العقائد المنحرفة أن يصبغوا دعواتهم بالألوان البراقة الرائعة كي يخدعوا بها جماهيرنا الشقية التي طال بحثها عن الطريق.. وهنا تكون الطامة الكبرى، يوم يحكم أمتنا، بعد عهود طويلة من الضياع والشقاء، مبدأ وضعي قاصر يعيد أبناء أمتنا إلى عهود أخرى من الضياع والشقاء!!

إن كل المبادئ الوضعية التي لا تنبثق عن (منهج) إلٰهي، ولا تستهدي بهدي الله، إنما تستهدف إنشاء مجتمعات (علمانية) تقضي على وحدة الإنسان، وعلى تكامل وجوده ووحدة كيانه المادي والروحي، وتوزعه وتشتته وتضيّعه عندما تقول له: ذلك ميدانك الفردي اصنع فيه ما شئت من فاعليات وممارسات روحية ـ دينية، ولكن لا تحاول أن تظلّل دائرة العلاقات الاجتماعية العامة بقيم تأتي بها من هناك أو تستوردها من السماء!!.. مجتمعات (علمانية) يغدو وجود الإنسان فيها محكوماً بسلطتين، فيصاب بالازدواج والثنائية مما لا يقره علم نفس تجريبي ولا حقائق علمية تاريخية، وتكون النتيجة بعثرة الطاقات البشرية، ونضوب المعين الحضاري، وشقاء الإنسان..

إننا في هذه الفترة الفاصلة من تاريخنا، حيث نقف على مفترق الطريق بين إسعاد أمتنا المسلمة أو إشقائها؛ يجب أن نرفع أصواتنا بقوة، وباسم الملايين التي لم تعرف غير الإسلام عقيدة ومبدأ، مطالبين وعاملين على تبني مبادئ الإسلام العظيم التي أثبتت كل التجارب الحضارية توحدها في ملاءمة الإنسان وإسعاده فرداً وجماعة، وبأن تكتسح من دروب جماهيرنا المؤمنة كل العقبات التي تقف في طريق اختيارهم العقائدي الحرّ من جهة، والتزامهم بحمل رسالتهم إلى البشرية من جهة أخرى.. تلك العقبات التي أقامها المستعمرون يوم أن قدموا في مطلع هذا القرن يحملون إلى شعبنا رسالة الشرّ والتخلف والدمار..

(١٩٦٤م)

الذين يخربون بيوتهم بأيديهم!!

في كثير من الأفلام السينمائية التي تعرض في البلاد العربية، دعايات مكشوفة، استعمارية وصهيونية، ضد العرب والإسلام، وهي مع ذلك تعرض في بلاد العرب والإسلام..! وفي كثير منها نماذج سافلة للإنسان عندما يتنازل عن إنسانيته ليحيا بالشهوة فقط، تماماً كما تحيا الحيوانات.. نماذج سيئة منحلَّة تثير شبابنا المتوثب، فتشغله عن مشاكله الأساسية والسعي لإيجاد الحلول لها، وتعطل طاقاته البناءة وتبددها في طريق الخيالات الجنسية المحمومة والمعاناة المكبوتة المدمرة.. والذي يلاحظ في هذا المجال أن أكثر من تسعين بالمئة من الأفلام العالمية تدور حول الجنس في جانبه السلبي الذي لا يعالج مشكلة الجنس بقدر ما يثير عوامل التهديم في كيان الشباب ويحطم معنوياته وتماسكه الذاتي. أما الأفلام العربية فإن نسبة النماذج القذرة فيها ترتفع عن هذا الحد، وتنحط أكثر، صارخة بالفجور..

وفي كثير من الأفلام إثارات عنيفة لنواحي التعقيد والتأزم النفسي لدى الإنسان.. إنها تعرض نماذج الشذوذ البشري بمختلف أبعاده بشكل مثير دون أن تحاول إيجاد أي حل طبيعي له، وتتركه هكذا مثلاً يحتذي به المراهقون والضائعون.. وأفلام أخرى تخصصت لعرض أساليب الإجرام لدى المنحرفين، وألوان التخريب التي تغرس في أعماق الأطفال نزعات الفوضى والهدم والتدمير، وتقضي على كل محاولة تربوية جادة لتنشئة أجيال صلبة العود بناءة الأهداف..

لقد راحت عوامل التحلل والانهيار تنخر في حضارتنا الإسلامية منذ أن طلعت علينا قوى الاستعمار والصهيونية لتحقق أهدافها بتشويه الإسلام في أذهان الشباب، وضرب قاعدته الأخلاقية عن طريق توجيه اهتمامات الشباب الجدية في دروب التحلل الخلقي، والتبذل الفاضح في تحليل العلاقات بين الجنسين تصوراً وسلوكاً.. ولم تكن الأهداف السوداء هذه في تحطيم الأساس الأخلاقي للشعب المسلم، والذي يمثل إحدى المرتكزات الكبرى للعقيدة الإسلامية، عفوية مرتجلة، دونما دراسة أو تخطيط للوسائل التي يمكن الاستفادة منها في تهديم أخلاق المسلمين، وبالتالي إبعادهم عن أي التزام بعقيدتهم، أو أي اهتمام جادّ بالقضايا الكبيرة التي يتوقف عليها وجودهم ومصيرهم، أو اتخاذ أي موقف صلب ضد طغيان حكامهم وعبث مسؤوليهم.. على العكس، أقيمت من أجل ذلك المحافل والمؤتمرات في عواصم الغرب والشرق، ورسمت المخططات السرية والعلنية، ودرست الإمكانيات المختلفة لتحقيق هذه الغاية؛ ألا وهي تحطيم القيم الخلقية، وزرع بذور التحلل في نفوس الشباب كي يفقد السيطرة أو القدرة على التعامل مع عقيدته والالتزام بقيمها وتكاليفها..

ولقد كانت وسائل النشر والإذاعة والتلفزيون والمؤسسات التعليمية ومناهج التربية (الأدوات) التي اعتمدتها تلك القوى المعادية لتحقيق أهدافها الهدامة... ولم تمض سوى عقود معدودة على مطلع القرن العشرين حتى كانت هذه (الأدوات) البناءة تستغل على نطاق واسع شمل العالم الإسلامي بأسره، في أبشع عملية تخريب أخلاقي عرفها التاريخ البشري.. ويمكن في هذا الصدد مراجعة عدد من الكتب والأبحاث قدمت ما فيه الكفاية من الوثائق حول الموضوع، وأهمها (الغارة على العالم الإسلامي)، وهو عدد خاص من مجلة (العالم الإسلامي) التي تصدر في فرنسة، صدر قبل مايزيد على نصف القرن، لعرض وتحليل نشاط التبشير البروتستانتي في البلاد

الإسلامية؛ وكتابا (بروتوكولات حكماء صهيون)، و(التبشير والاستعمار في البلاد العربية) لفروخ والخالدي. . . وغيرها كثير. .

وإزاء هذا الدمار الشامل تقف الطلائع الإسلامية المؤمنة لكي ترد بصمودها وتوحدها وتماسكها على هذه المأساة الإنسانية، مكافحة إياها، كما كافحت وكما تكافح على سائر المستويات السياسية والاجتماعية والعقائدية. . وبدون هذا (الالتزام الأخلاقي) ستكون كل الثورات والحركات في العالم الإسلامي معرضة للانتكاس شأن كل الثورات والحركات التي أهملت هذا البعد الخطير في بناء الإسلام، فكانت نهايتها الفشل والارتكاس، وتلك هي سنة الله: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

(١٩٦٤م)




نعم... جنرالات بلا جنود

منذ أن أعلن محمد ﷺ عن مولد الإنسان الجديد تحت ظلال الإسلام، بمبادئه وأخلاقياته وقيمه، ضج التافهون والمتحللون والمهزومون معلنين حرباً ضارية للقضاء عليه والعودة إلى جاهليتهم الظلماء... ولكن الذي حدث أن كل القوى التي قارعت الإسلام، كل الجماعات التي ناطحت صخرته، كل الفئات والتشكيلات التي أرادت (الوصول) على أشلاء آمال المسلمين وقيمهم ومبادئهم، كل التافهين المتبرقعين بستار مبادئ واهية، والغارقين في دخان الحشيش والأفيون، توجههم قوى الاستعمار وعملاؤه.. تحركهم كدمى لا إرادة لها ولا رأي.. كل هؤلاء وغيرهم من الطواغيت والجلّادين، ومن الجبناء الذين يخلدون في الأرض كما تخلد الجرذان.. كل هؤلاء تحطَّموا تحت أقدام الأمة المسلمة، وتشتتوا قبل أن ينالوا من مبدئها العظيم شيئاً.. تبخروا كما تتبخر أوحال البحيرة الآسنة لتكشف عن أرض بوار..

واليوم، بعد أن صمد الإسلام إزاء قوى الجاهلية الأولى، والصليبية المتعصبة، والوثنية المغولية، والاستعمار بأشكاله الثلاثة، شرقياً كان أم غربياً.. اليوم يحاول العملاء (الصغار) أن يلعبوا لعبة أخرى بالقيام بهجوم سافر وقح على قيم الأمة المسلمة ومبادئها ومعتقداتها.. وكان من الأجدر عدم الالتفات لهذا الذي يرغي ليذهب جفاء، دون عناء.. ولكن مدلول هذه المحاولات، وتوقيتها، وبواعثها الخفية، تضطر كل مسلم إلى أن يقف بالمرصاد لمثل هذه المحاولات، ويعرضها لضوء الشمس على الملايين

المنتشرين في بقاع الأرض، ليروا بوضوح تفاهة هذه المحاولات اليائسة التي يقوم بها المنحرفون لطمس معالم الإسلام، ومحو تأثيره الفذ العجيب في نفوس الجماهير.. وليدركوا أن محاولات كهذه ليست سوى أنفاس الاحتضار التي يلفظها الفكر الجاهلي ليقضي بعدها كما قضت من قبل أفكار مئات من الذين (تفرغوا) لمناطحة صخرة الفكر الإسلامي.. دونما جدوى..

دفعتني إلى كتابة هذه الكلمات (قصة قصيرة) قرأتها في صحيفة (الحرية) اللبنانية تحت عنوان (جنرالات بلا جنود).. والقصة تافهة في تكوينها وحبكتها الفنية، فضلاً عن محتواها.. وصاحبها يتبع أسلوب تداعي المعاني والخواطر بشكل متكلف، طغى، بل قضى على مستلزمات القصة القصيرة، كالعقدة والوحدة الموضوعية وتوجيه السرد، كما أنه أكثر من استخدام (المنولوج الداخلي) (أو حوار الشخص مع نفسه)، وهو يبدو متأثراً في هذا بنجيب محفوظ إلى حدٍّ كبير، خصوصاً في الروايات التي أعقبت الثلاثية (كاللص والكلاب) و(السمان والخريف)، وشتان بين الابتكار والتقليد.. كما أنه أخطأ في استخدام قواعد وإمكانات الرواية والقصة الطويلة بتطبيقها في إطار الأقصوصة المحدود، فنتج عن هذا كله مجموعة من الخواطر المفككة، تفوح منها رائحة (الويسكي الإفرنجي)، أسماها كاتبها (المغمور) (جنرالات بلا جنود)!!

أما المضمون المليء بالشتائم والسباب لكبار رجالات التاريخ الإسلامي ونسائه؛ فهو أتفه من أن يناقش، وفي الرجوع إلى القصة نفسها غناء عن ذلك.. وهي على أية حال تشير إلى مراهقة مضحكة في التعرض لكل القيم والمعتقدات والمقدسات بالسخرية والتشكيك الرخيصين.

وأخيراً.. لابد من الإشارة إلى العنوان، فهو الشيء الذي أبدع فيه القاص! فالحق أن الاستعمار أعيته الحيلة في البحث عن قواعد واسعة

ترعى مصالحه في العالم الإسلامي.. فاتفق مع مجموعة من الرؤوس الباحثة عن الكسب الحرام، وألبسها (لباس الجنرالية)، وكلفها بالبحث عن الجنود.. إلا أن رؤوسهم ستدق قبل أن يجدوا جنديّاً واحداً.. ستدق بأقدام الجنود.. وما دام الأمر هكذا.. فسيبقى هؤلاء الجنرالات، رغم كل المحاولات..

(جنرالات بلا جنود)!!

(١٩٦٥م)



سفينة حنان إلى...؟!

طلعت علينا إحدى الصحف الأسبوعية في بغداد بهذا الدفاع المستعطف الرقيق عن الأديبة اللبنانية (ليلى بعلبكي)؛ حيث قدمت للقضاء لمحاكمتها (!!) على ما جاء في كتابها الأخير (سفينة حنان إلى القمر) من (أدب مكشوف وإهانة للأخلاق)!!

يقول محرر الصفحة: «سفينة حنان إلى القمر، كان آخر كتاب طلعت به ليلى.. أجازته السلطات اللبنانية وصدر.. وطاف المكتبات العربية والعالم، وتناوله النقاد.. ترى ماذا بعد ذلك؟ وماذا يكمن وراء الضجة التي أثيرت أخيراً ضد ليلى بعلبكي، والتي دفعتها إلى أن تنزل مدرجات بوليس الأخلاق لتمثل أمام القضاء بتهمة إهانة الأخلاق، وبعد تسعة شهور؟ هل تتفق معي عزيزي القارئ في أن يحاكم كل من قرأ سفينة حنان؟ وهل يتهم الفكر، بل هل يقاوم القلم فيما يخط؟ وبماذا يفسر استجواب ليلى بعد تسعة شهور؟ وماذا يكمن خلف ستار الموجة التي جرَّت سفينة حنان ليلى من القمر إلى شاطئ البوليس... ثم ما هو رد فعل الوسط الأدبي حيال ليلى في محنتها؟ أظنك عرفت عزيزي القارئ كل شيء خفي، وهل تعتبرها أزمة خانقة يعيشها الأدب النسوي خاصة؟»...

هذا ما ذكره أحد المدافعين عن (ليلى بعلبكي) وهم كثيرون.. وأهم ما يثير الانتباه في هذا الدفاع الرقيق؛ هو هذه العبارة المتحررة: «هل يقاوم القلم فيما يخط؟»..

نعم يا (. . . . .) الأقلام التي تزرع بذور الخطيئة في فجر نهضتنا الوليدة، والتي تنشر الانحلال الخلقي باسم التقدم، وتشجع انحدار الإنسان من مستواه الذي كرمه به الله على العالمين إلى مستوى السوائم والحيوانات التي لا تعرف غير المأكل والسفاد. . الأقلام التي لا تخدم ثورتنا المعاصرة، وتلتزم قضايانا الحية المصبوغة بالدم والمأساة، والأقلام التي تبتعد ـ باسم حرية القلم ـ عن التعبير عن مشاكل حياتنا وعقيدتنا ووجودنا ومصيرنا، والإسهام في تجسيد تطلعاتنا وآمالنا، وتذهب بعيداً على سفينة حنان، ليست عاطفية شاعرة، كما توحيه كلمة (حنان)، بل حيوانية هابطة كما تعودنا من ليلى وكل الذين ادعوا وصلاً بها. . . هذه الأقلام يجب ألا تقاوم فحسب، بل يجب أن تحطم. . . أتسمع يا (. . .)؟. . يجب أن تحطم!!

لقد عرفنا في ليلى بعلبكي ورفاقها من أمثال: إحسان عبد القدوس، ويوسف السباعي وغيرهم، أدباء تطفلوا على الأدب وراحوا يكتبون على المكشوف، لا من أجل الأهداف الجمالية والاجتماعية والنفسية والفكرية للأدب، ولكن من أجل الإثارة الجنسية الرخيصة لجيل من الشباب، محمل بأعباء رسالة أمته، مسؤول عنها، مرهق بمآسيها، متطلع إلى غدها المشرق ومستقبلها الأفضل. . حيث سقط وسيسقط في الطريق عشرات الضحايا كل يوم من أجل توفير الحياة الكريمة العادلة لأجيالنا الصاعدة. . وحيث يبذل كثير من أدبائنا الملتزمين جهوداً مضنية في هذا السبيل. .

لكن ـ ويا للأسف ـ ترتفع بين الحين والآخر أصوات مهزوزة ناشزة، تدافع بمنطق هزيل، مضحك، عن إنتاج ليلى وإحسان والسباعي ورفاقهم من الذين لا تهمهم مأساة أمتهم بقدر ما يهمهم شيئان: المال والشهرة المبتذلة. . أليست ليلى هي التي هاجمت ـ مرة ـ شعب فلسطين؛ لأنه لم يقم بدوره كما يجب؟ ولنسألها: ما هو الدور الذي قمت به أنت من أجل قضية فلسطين؟ أبنشر التحلل والدمار الخلقي باسم الأدب الحر؟ أم بتحويل

الأدب عن رسالته الكبرى إلى مجرد تفاهات وإثارات ووجدانيات رخيصة؟ أبهذا سنحرر فلسطين ونقوم بالدور المطلوب؟!

إن ثمة أسئلة كثيرة يمكن أن توجه إلى المحرر المذكور ورفاقه الأحرار، لا أظن أن أيّاً منهم يجرؤ على الإجابة عليها... لماذا تقوم بعض الدول الغربية والشرقية، وهي المعروفة بديمقراطيتها وحريتها الخلقية، بتقديم بعض الأدباء إلى محاكم الأخلاق بسبب نشرهم لبعض إنتاجهم الذي يغلب عليه التحلل والتهتك؟ وهذا (ارسكين كالدويل) القاص الأمريكي المعاصر يقدم إلى المحاكمة بسبب روايته (أرض الله الصغيرة) التي لا تضم بين ثناياها عشر معشار ما تفصح به (سفينة الحنان) من قذارات جنسية؟ وهل قرأ هؤلاء المدافعون عن الحرية كتاب (بروتوكولات حكماء صهيون) واطلعوا على بنوده الخاصة بتشجيع واستغلال الأدب المتحلل لتدمير القيم الخلقية والدينية لدى الأميين من غير اليهود؛ كي تسهل السيطرة عليهم بعد أن يتحولوا إلى قطيع من الأغنام لا يعرف غير الأكل والسفاد، وإحناء الرقاب للجزارين؟ وما الذي يميز أمتنا المسلمة عن سائر الأمم إن لم يكن اعتزازها بالقيم وتشبثها بالعلاقات العادلة النظيفة بين الجنسين؛ سواء في الحياة الواقعة أم فيما يصورها من معطيات الآداب والفنون؟

ثم ـ وهنا تكمن السخرية المحزنة ـ ما هو الفرق بين سفينة الحنان التي أطلقتها ليلى إلى القمر، وبين ما يطلقه المعسكران الشرقي والغربي من سفن صناعية إليه؟ وأيهما سيصل قبل الآخر؟ وهل واجبنا أن نقلد هذين المعسكرين في صناعة الأقمار والصواريخ، أم في إطلاق سفن الحنان الرخيصة التي لا تستطيع أن ترتفع خطوتين في الفضاء الحضاري لما تحمله من أدب مكشوف وإثارات رخيصة، ولما تعج به من خطايا وآثام؟ أجيبوني.

(١٩٦٥م)

أنت قدر الله

جئت اليوم ـ يا أخي ـ لأحدثك حديث الأعماق المؤمنة إلى الأعماق المؤمنة، فالذين تحرقهم نار العقيدة لا يستطيعون السكوت على ظلام الجاهلية وزيفها وخداعها، والذين تغلغلت في دمهم وأعصابهم مبادئ الإسلام العظيم لا يستطيعون القعود والانتظار، وقوى الطاغوت تأخذ بزمام البشرية، وتسير بها في طرقات الشيطان فتعذبها وتسحقها... وتشقيها..

واليوم ترتفع صرخات كبار مفكري العالم، تنذر بالويل من المصير الأسود الذي ستؤول إليه المسيرة المعاصرة.. وتطالب بالإنقاذ!! إنقاذ يتطلب من طلائع البشرية أن تسير على طريق جديد، متوحِّد مستقيم، تظلله القيم الروحية والأخلاقية، ويحكمه التوازن بين المادة والروح، ويوجهه الله الذي ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾!

لقد تكلم (برناردشو) و(إشبنغلر) و(توينبي) و(كولن ولسون) و(برغسون) و(ياسبرز) و(ماسنيون) و(ديورانت) و(كاريل) وغيرهم كثيرون... كلهم أعلنوا عن مأساة الإنسان المعاصر، وعن اليوم الذي ستنهار فيه حضارة المادة التي لا توائم الإنسان.. ولكنهم ـ كلهم ـ لم يعرفوا الطريق!! لأن الطريق بأيدينا نحن المسلمين.. فما دامت البشرية تشقى بنظمها وتجاربها الوضعية، وما دامت شعوب الأرض في كل مكان تعيش أقسى تجربة عرفها التاريخ، فإن البديل لن يكون إلا المبدأ الذي رسمه الله طريقاً مستقيماً لمسيرة الإنسان نحو الغاية التي خلق من أجلها، لن يكون إلا الإسلام ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾!

فهل عرفت ضخامة المسؤولية الملقاه على عاتقنا؟ أن نحمل عقيدتنا إلى شعوب الأرض.. أن نقدم للنداءات الشقية المرتفعة من هنا وهناك، التجربة التي تحدد لهم معالم الطريق، وأن نتسلم زمام حضارة جديدة لا تهددها بالدمار قنابل واشنطن وموسكو، ولا تمزق أعصاب أبنائها مبادئ الوضعيين الأرباب الذين اتخذوا من الشعوب والأمم حقولاً لتجاربهم!!

فويل للذين يقفون في وجه القوى الإسلامية المكافحة في كل مكان من العالم.. إنهم إذ تأسرهم شهوة الحكم، أو تحركهم قوى الاستعمار، أو تدفعهم شهوة الطغيان لصب حقدهم الأسود على رؤوس المجاهدين.. إنهم إذ يفعلون ذلك يعتقدون أنهم سيقفون إلى الأبد أمام سنة الله التي لن تجد أية قوة في الأرض لها تبديلاً أو تحويلاً.. السنة التي تقرر أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده الصالحين، الذين لا يريدون علوّاً في الأرض ولا فساداً.. وما مأساة الحضارة المعاصرة ونظمها الوضعية، سوى في تعالي الطاغوت وإفساده في الأرض، في كل مساحات الحياة: عقيدة وتصوراً وسلوكاً..

فعليك ـ يا أخي ـ تقع المسؤولية العظمى.. أن تثور.. أن تعلنها إسلامية خالصة لا أخلاط فيها من مبادئ وضعية، وأن تقدم للإنسان في كل مكان فكرتك العظيمة: بكل علميتها ويقينها.. بكل ثورتها العنيفة على قوى الطاغوت، وحركتها الأبدية لسحق الانحراف أيّاً كان.. ومن أي مصدر كان.. وفي أي مكان وزمان كان..

عقيدتك ـ يا أخي ـ تحرق المؤمنين بها بالإيجاب، تحيل كل واحد منهم إلى قطعة من لهب لا تهدأ ولا تستكين، لأنها تحمل المسؤولية العظمى تجاه الإنسان الذي كرمه الله واستخلفه في الأرض.. وما دام العذاب يمزق أوصال الإنسان الذي يعيش نظم الحضارة المعاصرة التي

تسحق روحانيته، وتحيله إلى آلة أو إلى حيوان، وتهبط به عن مستوى الإنسان إلى درك بعيد القرار لا حدَّ لشقائه وتعاسته.. فإن عليك أن تتحرك لتنقذ أخاك الإنسان، حاملاً إليه دينك القيم!!

أنت يا أخي إرادة الله، وأنت قدره!! بك ستتحقق المشيئة العليا في تخليص البشرية من مصيرها الكالح الذي يلوح دخانه في الآفاق.. وبك ستتجسد مشيئة الله التي لن تجد لها أية قوة أو زعامة في الأرض، تبديلاً أو تحويلاً.. ولن يكون ذلك في أن تتحرك ثائراً مجاهداً وحدك.. لا.. ولكن في أن تكون مع الآخرين، كي تضم قوتك إلى قوتهم، وصرختك بوجه الطغيان إلى صرخاتهم، وقبضتك التي ستنزلها على رؤوس الأرباب والجلادين إلى قبضاتهم، وسلاحك الذي تحمله ضد الانحراف إلى سلاحهم.. هنالك سيكون لعملك قوة، ولجهادك رصيد.. فلتنطلق على بركة الله.. تهدم وتبني.. تنكس أعلام الجاهلية وترفع رايات الإسلام، فقد ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾..... وصدق الله العظيم..

(١٩٦٥م)

كَلِمَة في أذُن (الشيخ....)

هنالك طريق واحد لفهم الإسلام لا طريق غيره.. أن نفهم الإسلام ونتبنّاه كما فهمه وتبناه الرواد الأوائل: عقيدة شاملة جاءت من عند الله سبحانه لتنظيم شؤون الحياة في كل أبعادها، وجعلها تنسجم مع النظام الكوني الذي يخضع في كل جزئياته وتفاصيله لحكم الله الذي: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾.. وينبثق عن هذا بالضرورة:

أولاً: التزام حتمي لكل إنسان مسلم بهذه العقيدة كي يخضع لأمر الله ويحقق كلمة الإسلام من جهة، وكي يتوحد مع النظام الذي يسير الكون والحياة والعالم من جهة أخرى..

ثانياً: مسؤولية حمل هذه العقيدة إلى الأفراد والشعوب التي لم يصلها هدي القرآن: ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾.

ثالثاً: التزام الأسلوب الحركي، الثوري، لسحق العوائق التي تقف في طريق تحقيق الهدفين الأولين.. وهذا يعني ـ فيما يعنيه ـ اعتماد القوة التي ألزمها الله سبحانه لكل إنسان أو جماعة مسلمة بقوله: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾، ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾.. وما من شك في أن (القوة) التي تتطلبها الثورة أو الحركة الإسلامية ضد كل جاهلية في الأرض، تعتمد فيما تعتمد من الوسائل المادية على أمضى الأسلحة المعاصرة.. تارة بالسيف.. وتارة بالمدفع والرشاش، وتارة بالقنبلة والصاروخ.

وأي طريق لفهم الإسلام ـ بعد هذا ـ باطل ومرفوض، لأن الصحابة الكرام لم يعرفوه، وما عرفه المسلمون الملتزمون على طول التاريخ، ولم يخطر لهم على بال، لأنه غير موجود في قرآنهم، ولا في سيرة نبيهم عليه الصلاة والسلام، ولا في تاريخهم العقائدي الطويل.. الطريق الذي يريد الطغيان أن يفرضه على عقول سدنة الطغيان وعبيده المهزومين، وهو أن الإسلام دعوة روحية نظيفة لا يمكن أن تتدنس بأوحال السياسة، أو أن يقوم بحملها للناس تنظيم أو تشكيل حركي، أو أن تستهدف إزاحة الطغيان بالنار والحديد.. وأنها آنذاك سوف تبتعد عن المفهوم الحقيقي للإسلام، وتنزل إلى درك المؤامرات والإجرام!!

لقد جاء الإسلام ليعلن شهادة (لا إلٰه إلا الله) التي تعني، أولاً وقبل كل شيء، أن لا حاكمية في السموات والأرض إلا لله الذي هو سبحانه ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِي ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾.. وأية محاولة ـ بعد هذا ـ يستهدفها المحترفون باسم مؤسساتهم الدينية لتفسير الإسلام حسبما يشتهي الطغاة، محاولة باطلة ومدسوسة. إن الإسلام ـ إن لم يكن سوى دعوة روحية نظيفة، لا علاقة لها بحكم ولا ثورة ولا تنظيم ـ فهذا يعني أن الله ـ حاشاه ـ إله في السماء فقط، وأن الأرض خارجة عن حكمه وألوهيته، وأن الطغاة آنذاك يمكن أن يؤلّهوا أنفسهم، وأن يجمعوا حولهم العبيد يسجدون لهم ويركعون، ويشركون بالله الواحد ما لم ينزل له سلطاناً..

فإذا ما ثار المسلمون على أوضاع مشركة كهذه، لا ترتضيها مبادئ الإسلام الأساسية وبديهياته، تصدى لهم أشباه بني إسرائيل ليقولوا لهم: إن هذا ليس من الإسلام، وإنما هو من مؤامرات الإجرام!!

ومن قبل، وعلى طول التاريخ الإسلامي، برز الكثيرون من أمثال هؤلاء العبيد ليصدروا فتاواهم في تأييد الحاكمين والتنكيل بطلائع الأمة

المسلمة.. فما كان من التاريخ إلاّ أن أهملهم واحتقرهم، فحقت عليهم لعنة الله والناس أجمعين.. ومن قبل حاول أحبار بني إسرائيل تحريف الكلم عن مواضعه، وأن يشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً، فلعنهم الله، ولعنهم اللاعنون..

(١٩٦٦م)

لحظة انتصار...

«في حساب الأرض يبدو أن الطغيان قد انتصر على الإيمان، وأن هذا الإيمان الذي بلغ تلك الذروة العالية في نفوس الفئة الخيرة الكريمة الثابتة المستعلية، لم يكن له وزن ولا حساب في المعركة التي دارت بين الإيمان والطغيان!.. في حساب الأرض تبدو هذه الخاتمة أسيفة أليمة... ولكن القرآن يعلم المؤمنين شيئاً آخر، ويكشف لهم عن حقيقة أخرى، ويبصِّرهم بطبيعة القيم التي يزنون بها، وبمجال المعركة التي يخوضونها.. إن الحياة وسائر ما يلابسها من لذائذ وآلام، ومن متاع وحرمان؛ ليست هي القيمة الكبرى في الميزان، وليست هي السلعة التي تقرر حساب الربح والخسارة، والنصر ليس مقصوراً على الغلبة الظاهرة، فهذه صورة واحدة من صور النصر الكثيرة...».

«إن القيمة الكبرى في ميزان الله هي قيمة العقيدة، وإن السلعة الرائجة في سوق الله هي سلعة الإيمان، وإن النصر في أرفع صوره هو انتصار الروح على المادة، وانتصار العقيدة على الألم، وانتصار الإيمان على الفتنة... وفي هذا الحادث انتصرت أرواح المؤمنين على الخوف والألم، وانتصرت على جواذب الأرض والحياة، وانتصرت على الفتنة انتصاراً يشرف الجنس البشري كله في جميع الأعصار.. وهذا هو الانتصار!!».

من القمة أطلق (الشهيد) هذه الكلمات.. من القمة التي ما تزحزح عنها شبراً في يوم من الأيام نفخ هذه الروح.. من عليائه ـ تحيط به النقمة والقيود والعذاب ـ دوى بهذه الصرخات ليسمعها أصحاب العقيدة في كل

مكان وزمان، الحاملين مسؤوليتهم الكبرى في تاريخ البشرية، والمنتظرين الانتصار، هذه هي لحظة الانتصار!! اللحظة التي (قبض فيها الله ما اشتراه) والتي (شرفت الجنس البشري في جميع الأعصار).

وما كان (الشهيد) ليبقى وحده في القمة يعاني تجربة الإنسان المسؤول.. كان عليه من أول يوم ان يمد ساعديه لينتشل أولئك الذين يتخبطون في الظلمات.. أن يتخطى الأسلاك الشائكة التي وضعت في طريقه، حاملاً معه القرآن... القرآن الذي بقي في حسه ووعيه طيلة حياته، ما فارقه لحظة، ولا تخلى عن مثله وأهدافه لحظة.. وما تنازل عن حرف واحد من حروفه الكريمة لطاغية أو جبار.. القرآن الذي أحرق أعصابه المتوفزة وفكره النافذ لكي يقول للناس: إنه الطريق الوحيد، وما من طريق غيره... وإن الحياة ـ بدونه ـ ستظل هابطة تملؤها الأدران وتلطخها الأقذار.. وإن الإنسان البعيد عن طريق القرآن إنسان معذب، حائر، قلق، ممزق.. يقضي عمره المحدود في اهتمامات محدودة.. تافهة.. لا ترفعه ولا تزكيه.. بل تنتكس به في الحمأة، وتخوض به الجيف المنتنة والأوحال.. اهتمامات تافهة محدودة تبدأ بالنزوة الطائشة العابرة.. وتنتهي بالطغيان!!

ويمضي (الشهيد) ـ وهو في القمة ـ يدوِّي بهذه الصرخات وكأنه كان يرى رأي العين المصير العملاق الذي ينتظر المسؤول العملاق، وأن هذا المصير ليس موتاً ولا نهاية خاسرة، ولكنه حياة وانتصار «إن الناس جميعاً يموتون وتختلف الأسباب. ولكن الناس جميعاً لا ينتصرون هذا الانتصار، ولا يرتفعون هذا الارتفاع، ولا يتحررون هذا التحرر، ولا ينطلقون هذا الانطلاق إلى هذه الآفاق.. إنما هو اختيار الله وتكريمه لفئة كريمة من عباده، لتشارك الناس في الموت، وتنفرد دون الناس في المجد. المجد في الملأ الأعلى وفي دنيا الناس أيضاً، إذا نحن وضعنا في الحساب نظرة الأجيال بعد الأجيال».

إنما كان من التناقض المحزن.. ومن صميم المأساة والفجيعة.. أن يموت (الشهيد) كما يموت الناس.. آنذاك كانت مآقينا ستمتلئ بالدموع، وقلوبنا ستتفتت لأن نهايته لم تكن كفؤ حياته.. حياته التي ذاق فيها كل أنواع العذاب والقهر، وشرب من كؤوسها كل مر علقم.. ولكنه ارتفع على العذاب والقهر، وهان عليه المر والعلقم؛ لأنه كان أرقى من ذلك كله، وأسمى من ذلك كله، وهو الذي ما فارق القرآن وعيه ووجدانه لحظة.. أفيموت كما يموت الناس؟ كنا سنتألم من الأعماق لو مات الشهيد كما يموت الناس وكما يموت جلادو الناس!!

ولكن نهايته كانت من ذلك النوع العنيف السريع الرهيب.. الذي يجري دائماً في الليل، كانت نهايته كتلك التي عرفها عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما، في فجر المعركة بين الجاهلية والإسلام، بين المسؤولين عن أداء الأمانة الإلٰهية والمتهافتين في الظلمات.. كانت نهايته كتلك التي عرفها فيما بعد، وسيعرفها دائماً، مئات من الذين أعلنوا لحظة مسؤوليتهم: الإسلام أو الجاهلية.. دونما تنازل أو هدنة أو هروب.. أفلا يطمع إنسان مسلم أن يلتقي، بعد حياة حافلة بالإرهاق والجهد والمطاردة، بعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب ومن لحقهما على الدرب وعانقهما في المصير؟ بلى... لقد شارك (الشهيد) الناس في الموت، ولكنه تفرد من دونهم بالمجد.. المجد في الملأ الأعلى وفي دنيا الناس (إذا نحن وضعنا في الحساب الأجيال بعد الأجيال).. ونظرة هذا الجيل بالذات! الجيل الذي أصابه اليأس من الدوران في الحلقة المفرغة التي طحنته فيها تفاهات الوضعيين، ورزأته في آماله وأمانيه، بالفشل بعد الفشل، وبالخسران المبين بعد الخسران المبين.. وتلك سنة الله الثابتة المقررة التي تتحدى كل قوى الأرض أن تجد لها تبديلاً أو تحويلاً!!

ويمضي (الشهيد) وهو في القمة، ليبصر الناس بحقيقة تبدو للآخرين (عجيبة)، ولكنها ـ في حقيقة الأمر ـ بديهية من بديهيات الإيمان، وهي أن الهزيمة الحقيقية ليست في الصعود إلى المشانق ـ فهذا هو النصر المبين ـ ولكنها في تشبث المؤمنين بالحياة!! «لقد كان في استطاعة المؤمنين أن ينجوا بحياتهم في مقابل الهزيمة لإيمانهم، ولكن كم كانوا يخسرون هم أنفسهم؟ وكم كانت البشرية كلها تخسر؟ كم كانوا يخسرون وهم يقتلون هذا المعنى الكبير: معنى زهادة الحياة بلا عقيدة، وبشاعتها بلا حرية، وانحطاطها حين يسيطر الطغاة على الأرواح، بعد سيطرتهم على الأجساد؟». .

وتمر أمامنا ـ ونحن نقرأ هذه الكلمات ـ صور المهزومين الذين آثروا الحياة الدنيا على الإيمان. . ولم يكتفوا بالهروب والتنازل عن المسؤولية، ولكنهم وهبوا قواهم الهزيلة التافهة لحياة هزيلة تافهة. . بلا عقيدة ولا حرية!! هنالك في الدرك الأسفل (حيث يسيطر الطغاة على الأرواح بعد سيطرتهم على الأجساد)!!

ولكن (الشهيد) يشيح ـ وهو في عليائه ـ عن هؤلاء الصغار الذين يركضون هنا وهناك: يصرخون فلا يسمع صرخاتهم، ويسبون فلا يأبه لسبابهم، وينزون حقداً وجبناً فلا يرى هذا النزيز الأصفر القذر. . بل كان يستشرف آفاقاً أخرى. . آفاقاً بعيدة الحدود، هي التي تزن الإنسان وتعطيه قيمة، وتضعه موضعه الحق في هذه الحياة الدنيا. . لذا نجده يشيح ببصره عن أولئك الصغار الذي يضطربون عند قدميه كالحشرات، ليتكلم عن الكبار الذين لا يعرفون النصر إلا عندما يذوقون مس النار!! «إنه معنى كريم جدّاً، ومعنى كبير جدّاً، هذا الذي ربحوه وهم بعد في الأرض، ربحوه وهم يجدون مس النار، فتحترق أجسادهم الفانية، وينتصر هذا المعنى الكريم الذي تزكيه النار»! أفلا يحق له ـ وهو في خضم النار ـ ألا يلتفت، ولو

لحظة واحدة، إلى أولئك الذين يجترون ويتقيؤون حقداً وتملقاً وجبناً؟ ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾، ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾! «فالمعركة إذن لم تنته، وخاتمتها الحقيقية لم تجئ، بعد، والحكم عليها بالجزء الذي عرض منها في الأرض حكم غير صحيح، لأنه حكم على الشطر الصغير والشطر الزهيد».

وستظل المعركة التي وهبها (الشهيد) وإخوانه حياتهم، دائرة بين الحق والباطل، والإسلام والجاهلية، والعقيدة والضياع، والإيمان والكفر، والارتفاع والهبوط، والقيم العليا والأهداف السافلة، والآفاق الممتدة في أعماق الزمان والمكان، والحدود الضيقة التي تخنق الحريات وتكتم الأنفاس.. بين التضحية والأنانية، والحب والكراهية، والعدالة والظلم، والجمال والقبح، والسعادة والشقاء، والإحسان والجريمة، والتحرر والطغيان.. ستظل هذه المعركة الواحدة دائرة على أرض واحدة لتحقق الهدف الواحد، وهو انتصار الإسلام على الجاهلية، والنفوس الكبيرة على النفوس الحقيرة، وحكم الله على حكم العبيد! وخلال ذلك كله ما على المؤمنين «إلا أن يؤدوا واجبهم ثم يذهبوا. وواجبهم أن يختاروا الله. وأن يؤثروا العقيدة على الحياة.. وأن يستعلوا بالإيمان على الفتنة. وأن يصدقوا الله في العمل والنية. ثم يفعل الله بهم وبأعدائهم كما يفعل بدعوته ودينه ما يشاء، وينتهي بهم إلى نهاية من تلك النهايات التي عرفها تاريخ الإيمان، أو إلى غيرها مما يعلمه هو ويراه. إنهم أجراء عند الله. أينما وحيثما وكيفما أرادهم أن يعملوا عملوا وقبضوا الأجر المعلوم! وليس لهم ولا عليهم أن تتجه الدعوة إلى أي مصير، فذلك شأن صاحب الأمر لا شأن الأجير.. إنهم مختارون ليكونوا أداة لقدره، وستاراً لقدرته، يفعل بهم في الأرض ما يشاء»!!

وقبيل أن يعانق (الشهيد) مصيره أعلن: «الحمد لله الذي اشترى قبل أن يقبض» الحمد لله.. هكذا أحس (الشهيد) دائماً أنه سعيد.. سعيد وهو في ظلمات السجون، سعيد والسياط تلهب ظهره، سعيد والمطاردة التي لا تنتهي تضيق عليه الخناق.. سعيد وهو يصعد المشنقة في فجر يوم من الأيام التي تشرف الجنس البشري كله في جميع الأعصار.. سعيد والجلاد يضع الحبل في عنقه، ويسلمه ـ في لحظة ـ من يد الطغيان إلى يد الله سبحانه... فوا فرحتاه.. لقد ربحت الصفقة، وقبض الله بعد أن اشترى!! وهذا هو النصر الحقيقي.. النصر الكبير الذي وهبه (الشهيد) حياته.. النصر الذي يسخر من أولئك المهزومين الذين باعوا عقيدتهم ليشتروا ثمناً قليلاً.. نصراً أرضياً تافهاً.. زائلاً..

لقد انتصر (الشهيد).. وكل ما كان يرجوه ويتمناه على الله، منذ أن انضوى تحت راية القرآن، ليقاتل في ساحات الطغيان والجاهلية، كل ما كان يرجوه هو أن يشتريه الله ثم يقبضه، لا أن يقبضه قبل الشراء، فيخسر بذلك فرصة الحياة.. الفرصة الوحيدة.. ولقد اشتراه ربه!!

(١٩٦٦م)

(١٠) رسائل إلى المسلمين في كل مكان..

«إن كل رعب يمكن أن يحدد، وكل حزن يبلغ نهاية ما ليس في الحياة وقت نكرسه للأحزان الطويلة..

لكن هذه، إنها خارج نطاق الحياة، خارج نطاق الزمن، إنها خلود مستمر للشر والطغيان..

لقد تلوثنا بقذارة لا نعرف كيف نغسلها، قذارة متحدة بالهوام الخارق للطبيعة، لسنا وحدنا، وليس البيت، وليست المدينة التي تلوثنا، بل إن العالم أجمع هو الذي تلوَّث..

نقِّ الهواء، نظف السماء، واغسل الهواء، وارفع الحجر عن الحجر، واسلخ الجلد عن الذراع، وانزع العضلة عن العظم، واغسلها، اغسل الحجر، واغسل العظم، واغسل المخ، واغسل النفس، اغسلها، اغسلها».

كونستانتان جيوروجيو

(الساعة الخامسة والعشرون)

١

أكتب إليكم..

لحظة يتفتح الوعي على معنى الشهادة.. وتنفسح الرؤية على مواقع المسلمين في العالم.. ويصحو الإدراك على حقيقة المسؤولية التي ألقيت على عاتقنا..

لحظة تنتفض الإرادة من رقادها الطويل، وترفع النداء إلى المسلمين جميعاً:

إن الشهادة أن تجعلوا من قلوبكم رايات مكتوب عليها (لا إلٰه إلا الله)، وتتقدموا بها صوب مصيركم العظيم، وإن مواقعكم هي في الأمام دائماً، تقودون وتسقطون، لا تتخلفون ولو صُبت نيران الجحيم.. وإن مسؤوليتكم يجب أن تحيلكم إلى عمالقة في كل الأبعاد والمساحات.

فيها أيها المسلمون في كل مكان.. ضعوا نصب أعينكم دوماً شهادة لا إلٰه إلا الله، والمواقع التي أراد الله أن ترابطوا فيها، والمسؤولية العظمى التي اخترتم حملها يوم أن بايعتم رسوله العظيم..

٢

منذ اللحظة التي سحب فيها (بلال) على الرمال المحرقة.. وقيل له: تنازل (فقط) عن شهادتك هذه، ما فتئ يصرخ (أحد.. أحد).. لأن في هذا التعبير الواحد إيمان بالوحدانية التي ما أذلّت يوماً جبهة مؤمن لطاغية أو جبار.. وظلت تحرق أعصابه بنار الإيمان، وترفع رأسه.. عالياً.. عالياً.. فوق مستويات الظلم والقسوة والإرهاب..

ومنذ اللحظة التي وقف فيها (أبو دجانة) لا يتزحزح عن موقعه، يترس بظهره للرسول ﷺ، حتى لم يبق مكان لنبل.. أدرك بوجدانه العميق أن الثبات في المواقع الأمامية.. استقبال الموت وعشق الشهادة.. ليست سوى الثمار المحتومة للاختيار العظيم، وأن على المسلمين، إزاء اختيارهم هذا، أن يتقدموا دائماً إلى المواقع التي يبدو لهم فيها الموت واضحاً جليّاً!! وأن ثغور الموت والشهادة هذه، إذا لم يشغلها المؤمنون.. فمن يشغلها؟ وإذا لم يتقدم المؤمنون إلى حيث يفتحون صدورهم للحراب.. فمن يتقدم؟!

منذ اللحظة التي حمل فيها (جعفر) الراية، وتقدم بها إلى ساحة النار والتمحيص... كان العشق واليقين يشدان يديه القويتين على الراية.. حتى إذا ما قطعت إحداهما، شدت الراية باليد الأخرى.. فإذا ما قطعت هذه أيضاً.. أطبق عليها بما تبقى من عضديه، وظل يتقدم، مؤمناً إيماناً يزلزل الجبال بأن المسؤولية هكذا يجب أن تحمل.. الراية التي تلاحق قوى الشرك والظلام، وجب أن تظل خفاقة في الأعالي.. لأن النداء الذي حفر عليها محفور، هنالك في القلوب.. ولأن صرخة (لا إلٰه إلا الله) كانت تنصب في تلك اللحظة على حسه ووجدانه، بكل أبعادها ورؤاها، في أعماق السموات..

فيا أيها المسلمون في كل مكان..

دونكم (بلالاً) وهو يصرخ: أحد.. أحد.. و(أبا دجانة) وهو يترّس بظهره للرسول العظيم.. (وجعفراً) وهو يقبض على الراية بما تبقى من يديه!!

٣

أكتب إليكم..

والعالم يحيطه الظلام.. يكفنه غبار العدم.. يخنق أبناءه القلق والسأم والخواء.. الإنسان الواحد في هذا العالم يغدو في اليوم الواحد ألف إنسان.. يتمزق من الأعماق يغدو أشتاتاً وتفاريق.. كل شلو منها يرنو إلى شيء.. كل قطعة منها ترغب في شيء.. كل مزقة منها تعشق شيئاً.. لكنها جميعاً لا تلتقي على هدف واحد.. على معنى أو شعور أو وجدان واحد..

وهذا يعذب الإنسان المعاصر ويشقيه..

إن الشيطان يقف له في كل مكان يغريه ويدعوه أن هلم إلينا.. يعرض عليه فتنة الأرض كلها وإغراءات الأرض كلها.. وسرعان ما يستجيب إليه هؤلاء المعذبون ويرتمون في أحضانه، فيسقيهم الخمر والحشيش والأفيون، وينثر تحت أقدامهم الأموال والأشياء، ويشبع نهمهم إلى الجنس والطعام.. لكنه لا يوحِّد أشتاتهم.. لا يشد وجدانهم.. ولا يمنحهم الأمن والسكينة والاطمئنان..

وهكذا يظلون يدورون في الدوامة، معذبين قلقين أشقياء.. فيغرقون أنفسهم بمزيد من سموم النسيان.. أو ينتحرون.. لأنهم ليسوا سعداء!!

٤

والآلة تسيطر اليوم على وجود الإنسان.. تكبل يديه بالأغلال.. تضغط على عنقه فتسد مسالك الهواء إلى كيانه ورئتيه.. إنه يشعر بالاختناق.. إن دخان المصانع وغبار المناجم وتراب العمارات الشاهقة، يهب عليه من كل

مكان.. يحاصره من هنا وهناك.. يحجب عنه نور الشمس.. يطغى على أضواء النجوم ونور القمر.. يسد عليه كل منافذ الرؤية ويحجر على سمعه..

إنه لم يعد يسمع إلّا أصوات الآلات وهي تدور.. والمعاول وهي تنقب عن الذهب في ظلمات الأرض.. والغناء الرتيب الحزين، يرفع به العمال عقيرتهم، وهم معلقون في أعالي العمارات، يبنون جداراً أو يصبون سقفاً!!

إن الآلة والدخان منعتا عن الإنسان الرؤية والتنفس والسمع.. وها هما في مساحات واسعة من الأرض تمنعانه عن الكلام.. إنه لم يعد يستطيع أن يصرخ، ولا يقول شيئاً.. خلا ما ينسجم مع هذا الوجود المعاصر بآلاته ودخانه..

وإلا فإنه سيقتل أو يعذب.. بحجّة أنه خارج على (النظام).. أو أنه مجنون!!

٥

أكتب إليكم..

وأنا أرى بوضوح حرية الإنسان وقد فقدت معناها العميق، وغدت، رغم ازدياد بريقها وتوهجها، سلسلة من قيود تشل إرادة الإنسان، وتغل يديه..

تكم فمه.. تحجب على عينيه.. وتسد أذنيه..

إن عليه أن يسير في الطريق الذي اختاروه له.. أن يؤدي الحركات التي كُلِّف القيام بها.. ألا يتجاوز عدد الخطوات التي سمح له بتخطيها..

إن أية محاولة منه لتعدي الطريق، أو اختيار حركات جديدة، والسير خطوات أخرى إلى الأمام، سوف تقضي عليه بالإعدام!!

إن حرية الجاهلية المعاصرة ليست سوى خدعة كبرى أحالت الناس إلى قطعان من الماشية لتجارب التلقيح الصناعي.. وحظائر من الجرذان للاختبار الطبي.. وممالك من النمل لخزن الغلال لأيام الشتاء.. وأسراب من الجراد يسلط بها القادة والزعماء غضبهم على المقهورين والمعارضين لتأكل ثمارهم وتقضم كدهم وجهدهم، وتحيل نتاج عرقهم ودمائهم إلى (أرض بور).. إن الحرية التي أعطيت للإنسان المعاصر ضحكة قاسية يطلقها الشيطان كل يوم، وإغراء بمزيد من القيود والأغلال تشد يد الإنسان وعنقه، وتمنعه من الاختيار..

فيا أيها المسلمون في كل مكان..

إن عليكم أن تقولوا لهم: إن هذه الحرية زيف.. وإنها قد أحالتكم إلى قطعان ماشية وحظائر جرذان.. إلى ممالك نمل وأسراب جراد.. وإن هذا مصير الذين لا يتلقون حريتهم عن الله الخلّاق الذي وهب الحرية للإنسان وقال له:

اصنع بها مصيرك المتفرِّد العظيم.. أو تخبَّط بها في الظلمات!!

٦

إن الحقد والكراهية يأكلان قلب الإنسان في عصرنا هذا.. أين الحب والتآلف والوداد؟ لقد ذهبت كلها مع الريح، غطاها الدخان الأسود الكثيف..

حتى حب الرجل للمرأة.. لم يعد يملك ذرة من وجدان!!.. لم تعد تهزه أنهار العاطفة بعد إذ ردمتها الكراهية في أعماق القلب ومسالك الضمير.. إن الإنسان المعاصر لم يعد يحب حتى نفسه.. إنه يكرهها.. إن مقته لها قد تجاوز كل حد في تاريخ البشرية..

وها نحن نشهد اليوم مزيداً من عمليات القتل والاغتيال والانتحار... وهي كلها تعبر عن هذا البغض والكراهية... عن الحقد الذي ينفث سمومه في شرايين الإنسان...

فيا أيها المسلمون في كل مكان..

إن عليكم أن تأخذوا أماكنكم في الأمام لتوقفوا انحدار البشرية هذا المخيف إلى هاوية الكراهية والبغضاء.. ولتوجهوها من جديد، وكما يريد لها الله المحب الودود أن تسير: إلى عالم الحب.. والرحمة.. والتآلف.. والوداد!!

٧

أكتب إليكم..

وفي مخيلتي صورة محزنة لهذا التكاثر بالأشياء.. التكاثر الذي يتفجر عن نهم لا يعرف شبعاً، وظمأ لايعرف ريّاً، وجشع لا يعرف انتهاء.. التكاثر الذي أحال الأرض إلى مزاد كبير، وأحاط الإنسان بسياج من الأشياء منعته من أن ينظر إلى نفسه، أن يخاطب زوجته وأولاده، أن يرى إخوانه وأبناء أمته.. إن الجميع يلهثون اليوم، كلاباً جائعة، يركضون هنا وهناك للحصول على مزيد من الذهب.. لاقتناء مزيد من الأشياء..

إن هذه الرغبة في التكاثر هي الأفعى التي تلتهم القناعة والسكينة، تمحق الاطمئنان الروحي والتوحد الذاتي، وتحيل الحياة إلى صراع لا نهاية له بين الإنسان ونفسه، بينه وبين الآخرين.. ادخلوا إلى بيوت الناس وانظروا: ستجدون أشياء متراكمة ولكنكم لن تجدوا أهليها!! ادخلوا قلب الإنسان وانظروا: إنكم ستجدون الذهب والفضة، وتعاينون انطباعات الأشياء في زوايا اللاشعور.. ولكنكم لن تجدوا قلباً ولا وجداناً ولا ضميراً!!

فيا أيها المسلمون في كل مكان..

اجعلوا من وجودكم الثائر صرخة تحدٍّ في وجه هذا الطغيان المادي.. في طريق هذا التكاثر بالأشياء.. قولوا لهم: إن القبور تنتظرهم هناك.. فهل سيأخذون معهم سوى الأكفان؟!

٨

والخوف...

الخوف الذي يبرز دائماً، بديلاً قاهراً لضياع الإيمان في القلوب والضمائر! نذير سوء، يحيل حياة الإنسان إلى حزن عميق لا قرار له!! الخوف الذي يطارد الإنسان في كل مكان... أنى اتجه، وحيثما وضع خطاه!!

إن هذا الإنسان نبذ نفسه خارج رحمة الله وأمنه.. فراح الخوف ينتظره هنا.. وهناك.. فهو يخاف الموت لأنه النهاية المفجعة لحياة غير سعيدة.. نهاية ما بعدها إلا الزوال والتحلل والفناء.. وهو يخاف الحياة لأنها تنذره في كل لحظة بوقوع كارثة أو إلمام خطب.. وهو يخاف (الآخرين) لأن الحقد والكراهية قد أجبرت الناس على تسليح أنفسهم بالفؤوس والسكاكين.. وهم مستعدون في كل لحظة لقطع رقبة أو تحطيم رأس، إذا ما أحسوا في أنفسهم أن هذا الإنسان.. أو هذا.. أو ذاك.. يهدد أهدافهم ومصالحهم وأمنهم المفقود..

وهو يخاف النظم والقوانين، تلك التي فرضت عليه الأغلال بالحق والباطل، لأن أية مطالبة بتخفيفها ستطيح برأسه.. على الأقل ستبعده عن أهله وذويه.. تلقي به بعيداً في المنفى أو الظلمات.. وهو يخاف السلطة والطغيان.. لا يستطيع أن يقف بوجه الظالم ليقول له: يا ظالم!!.. لأنه

يخاف.. فليس هناك من يحميه.. بل هنالك دائماً: الجواسيس الذين يسلمونه ليد الطغيان.. جواسيس في بيته ودائرته، في الزقاق الذي يجتازه، في الشارع الذي يعبره، في النادي الذي يقضي فيه ساعات فراغه..

ثم هو يخاف من نفسه.. من حياته ذاتها!!.. إنها فرصته الوحيدة.. المجال الذي يجب أن يرى كل أبعاده.. الساحة التي يجب أن يجتاز كل أطرافها.. النادي الذي يجب أن يأكل كل أطعمته، ويشرب كل خموره، ويذوق كل لذاته.. الماخور الذي يجب أن يتصل بكل امرأة فيه!!

إنها الفرصة الوحيدة.. وما بعدها سوى الفناء.. وها هو خائف مذعور.. خائف أن تفلت من يديه لذة من اللذات، مشهد من المشاهد، صوت من الأصوات.. يبرز القلق من قرارة ذاته.. يتفجر الخوف من أعماق أعماقه.. وهو يريد أن يدفعه.. أن يستله من الأعماق ويسلمه للخارج.. أن يكنسه من وجوده كنساً.. لكن خوفه من الفشل يشله، فيغدو عالمه الباطني العميق ساحة للمخاوف والأحزان لا ينهيها إلا الموت..

تلك هي رحلة الذين لا يؤمنون بواهب الحياة، وباعث الخلود والأمن.. يعبرون طريق الدنيا وهم خائفون.. وأنى لهم السكينة والاطمئنان؟!

فيا أيها المسلمون في كل مكان..

علِّموهم كيف يكون الأمن والفرح والشجاعة.. وكيف كان أجدادكم يرقصون طرباً تحت ظلال السيوف.. وكيف كان قادتكم ومجاهدوكم يصعدون إلى أعالي المشانق بخطوات ثابتة متزنة كأنهم ذاهبون إلى مسجد لأداء صلاة!!.. وأن القوة التي يفجرها الإيمان في نفوسكم ستدفعكم دوماً، كما دفعت آباءكم وشهداءكم، إلى أن تصرخوا في وجه الظالم: يا ظالم.. إلى أن تثوروا، كما ثاروا، على رفض الله.. وإلى أن تلووا، كما لووا، أعناق الطواغيت وأيديهم.. بالكلمة.. والصرخة.. والفأس.. والسكين..

أنتم أيها المسلمون بأمنكم وفرحكم، الجزر الخضراء التي يأوي إليها الخائفون المرهقون. . . يرتاح على شواطئها المحزونون. . يأمن في ظلالها المطاردون بالرعب. . وها هم أولاء يلتجئون إليكم. . إلى الجزر الهادئة وسط صخب المحيط، في خضم ظلماته الآخذ بعضها برقاب البعض. . قولوا لهم: إن ما لقيه الرسول العظيم وأصحابه. . المطاردات التي أحاطت بهم في الليالي السود. . السخريات التي انصبت عليهم من كل حنجرة. . العذاب الذي جاءهم من كل مكان. . لم تكن عبثاً. . فها أنتم اليوم تجدون بعضاً من العالم الذي صنعه الرسول والصحابة. . جزر أمان خضراء، وسط رعب العالم وقسوته. . تنساح فيها أشعة الشمس. . تنساب على أطرافها أضواء القمر. . يهب في أفيائها النسيم. . بلا دخان، ولا غبار، ولا تراب. . تتفجر أرضها عن العيون والثمار. . يأتيها رزقها رغداً من كل مكان. . يعيش أهلوها في أمان عميق مع أنفسهم ومع الآخرين. . في حب وألفة ووداد مع الكون. . مع الشمس والقمر والنجوم. . مع العيون المتفجرة من أعماق التربة. . والثمار المعلقة على غصون الأشجار. .

علِّموهم. . أن المراكب التي تقترب من شواطئ الجزر. . يوماً بعد يوم. . لتنقلهم من هذا العالم إلى العالم الآخر. . لا يتلقونها بالحزن والرهبة والخوف. . بل بالأمل العميق الذي ينبعث في النفوس، يوم أن تغادر عالم اللحظات والساعات والسنين إلى دنيا الخلود. . إن هذه المراكب الآتية من بعيد، والغادية إلى البعيد، لا تخلف في قلوب المؤمنين عند رحيلها لوعة ولا حزناً. . لأن الإيمان، هذا المعلم العظيم، علمهم أن هذه الحياة ليست سوى بداية طريق. . وأن الموت نقلة عبر الطريق ذاته. . وأنه ـ إذن ـ لا تبدُّل ولا فناء. .

وهل تبقى بعد هذا رهبة أو خوف؟ هل يبقى بعد هذا حزن على ميت أو لوعة لفراق؟!

٩

وأجدني مدفوعاً للكتابة عن القلق..

راية القرن العشرين، وسكينه المغروزة في الأعماق!!

أدور وأبحث.. مئات من تجارب الذات، ومواضيع العالم، يمكن أن يُكتب عنها.. لكنني أعود فأكتب عن القلق.. الشبح الذي يطارد البشرية جميعاً، وهي تهرب منه في الشوارع والمنعطفات.. في الكهوف والسراديب.. في الخلاء اللانهائي وناطحات السحاب..

إخواني يقتلون في أقطار العالم الأربعة. ينشرون بالمناشير ويعلقون على الأخشاب.. لكني لا أكتب إلا عن القلق.. المنشار الذي يمزق الإنسان المعاصر، يقطعه أشلاء...

جحافل الغزاة تجتاح المدن النبوية.. تهدم المساجد المباركة.. تحثو التراب على خطا الأنبياء.. فتضيع معالم الطريق.. ولا أكتب إلّا عن القلق.. هذا الدجال ذي العين الواحدة!!.. الكابوس الذي يرعب الجميع.. يسحق أمنهم الذاتي.. ومهما فروا أو ناموا.. فلن يستيقظوا أو يلتقوا إلا بالدجَّال..

وفي الخريف.. عندما تنفض الأشجار أوراقها بعفوية حزينة، وتتعرَّى الطبيعة بتجرد صوفي.. ويندفع الآخرون، شعراء وفنانون، يكتبون عن البعد الثالث.. البعد الذي فتحه الخريف في وجودهم.. أكتب أنا عن القلق.. البعد الأول والثاني والثالث في وجود الإنسان!!

وفي الربيع، عندما يرتد العالم من الصوفية إلى الطبيعة، وتنبعث الحركة من قلب التراب.. عندما تتناسق الألوان بتوافق فنان معجز.. وتفوح الأجواء بعبير من الجنة التي وعد بها المتقون.. يكتب الآخرون عن الجليد

الذي ذاب، والبراعم التي تفتحت، والأرض التي عادت من رحلتها العميقة الحزينة إلى واحة الفرحة الخضراء.. والروح التي التقت بهيكلها المفقود بعد فراق.. أكتب أنا عن القلق.. الجليد الذي لا يذوب.. ورحلة الإرهاق الأبدية في صحراء لا واحة فيها.. والروح المريضة الخاوية التي لا أشواق لها..

لماذا عن القلق.. وفي الأعماق ألف تجربة يصنعها الحب والحقد.. الأرض والسماء.. الجمال والبشاعة.. الفرحة والحزن.. التناسق والتنافر.. التصوف والغرام؟ لماذا عن القلق، وفي العالم ألف تجربة يصنعها القتل والتعذيب.. والغزو والدنس.. وعواصف التراب التي تثيرها قطعان لا تنتهي.. ألوف من الذئاب تنطلق هائجة متعطشة لتغطي بالغبار طريق الأنبياء..

لماذا عن القلق؟!

١٠

أكتب إليكم..

وأحداث القرون التي تمرد فيها الإنسان على هدي الله تمر أمامي: الدول وهي تقوم ثم تسقط.. الحضارات وهي تلتقي وتمتزج ثم تذوب في بحر الزمن.. الكوارث وهي تصب نقمتها على الأمم والشعوب.. مجاعات.. طاعون.. زلازل وأعاصير.. والطواغيت وهم يحكمون بما لم ينزل الله.. يقتلون الأبرياء، ويسفكون الدماء، ويدوسون على المحرمات.. ومن خلال ذلك.. من خلال هذا الظلام وهذا الركام، كانت ثمة أضواء تلتمع هنا وهناك.. وسط الجاهلية والظلمات.. ومؤمنون يرفعون صيحاتهم ليوقفوا الطغيان..

في مدى هذه القرون.. رأيت الإنسان يشهر سلاحه بوجه أخيه الإنسان.. والحقد عندما يصطرع مع الخير والمحبة.. والعصبية عندما تقاتل السماحة.. وخلال ذلك كله كنتم أنتم مركب الفرار إلى الله، عبر خضم يطحن في أعماقه الملايين..

ولا زلتم الأرض الموعودة.. والمرفأ الذي يطمح العالم المنكود لأن يلقي فيه مرساته يوماً..

فيا أيها المسلمون في كل مكان..

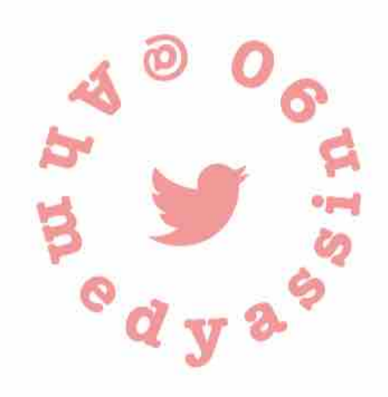
هذه رؤاي وهبتها لكم.. وأنا أمد بصري.. كآخر رجل.. في آخر موقع.. من مسيرتكم الطويلة.. إلى ما يمكن أن تصنعه طلائعكم وهي تحمل في دمها ونسيجها صرخة بلال..

وبطولة أبي دجانة..

وإصرار جعفر بن أبي طالب!!

(١٩٦٧م)





@Ahmedyassin90

٣

مناقشات

حول التاريخ الإسلامي

كان مندوب إحدى الصحف، بُعيد ثورة رمضان ١٩٦٣م، قد قام بزيارة لقسم الدراسات العليا للتاريخ الإسلامي بجامعة بغداد، حيث التقى بلفيف من الطلبة وطرح عليهم الأسئلة التالية:

(١) باعتباركم من المعنيين بدراسة التاريخ، هل تعتقدون بأنه قد تمَّ الكشف عن حقائق التاريخ الإسلامي بصورة علمية وأمينة؟

(٢) ما هي نظرتك لكتابات المستشرقين في حقل التاريخ الإسلامي؟

(٣) ما هي المقترحات التي تجدها مناسبة لإعادة كتابة التاريخ على أسس سليمة؟

(٤) هل يمكن أن نستفيد من دراستنا للتاريخ الإسلامي في إصلاح أوضاعنا الحالية؟

(٥) ما هو رأيكم في قيام جمعية علمية تعنى بمواضيع التاريخ الإسلامي؟

وكانت إجاباتي الموجزة كما يلي:

(١) لا تقف عملية (التاريخ) عند حدٍّ، فهي ليست عملية نقل فوتوغرافي للأحداث فحسب، بل هي تتعدّاه إلى تعمق الأسس العقائدية والاجتماعية والاقتصادية والنفسية التي أثرت في الحادثة، أو الحركة التاريخية، وجعلتها تسير بهذا الاتجاه أو ذاك.. لقد اتضح ذلك في القرن الأخير، إذ غدا التفسير التاريخي ملزماً لمعظم المؤرخين..

فإذا ما فحصنا الجهود التاريخية التي بذلت في حقل التاريخ الإسلامي وجدناها ـ بصورة عامة ـ تشكل قطاعين يفصل بينهما الزمن، وما يحتويه من اتجاهات جديدة سلكتها الثقافة الإنسانية. أما القطاع الأول فيشتمل على مجموعة المصادر الأولية للتاريخ الإسلامي؛ كإنتاج الطبري والدينوري واليعقوبي والواقدي.. إلى آخره.. وأهم ما تتسم به أعمالهم: هي أنها تسجيل غير ناقد، أو محلل ـ إلّا نادراً ـ للأحداث التاريخية، بل هي مجرد سرد زمني للواقع من حيث هو.. ولكنهم بهذا قدموا خدمات جليلة لحقل التاريخي الإسلامي، بجمعهم رصيداً ضخماً من الحقائق التاريخية ـ كما هي ـ ذلك الرصيد الذي يتصف معظمه بالأمانة العلمية، إذ نلحظ أن الأسس الثقافية لأولئك المؤرخين كانت إسلامية منفتحة، لا أثر للتعصب الحزبي أو السياسي فيها، وهذا لا يمنع وجود بعض الكتابات (غير الأمينة)، ولكنها محدودة من الناحية الكمية.

أما القطاع الآخر فيشتمل على مجموعة المراجع الثانوية التي قدمها الفكر الإسلامي الحديث، خاصة في القرن الأخير، وتتصف بأنها لا (تسجل) فحسب، وإنما (تفسِّر) أيضاً وهي خطوة إيجابية في هذا الحقل.. أما مدى علمية هذه الكتابات فتعتمد على نوعية المؤثرات العقائدية والثقافية التي تسلمها المؤرخ الإسلامي الحديث، وهذا يتضح في الإجابة على السؤال الآخر.

(٢) تلقى معظم المستشرقين وتلامذتهم مؤثرات عقائدية وثقافية تمتد جذورها إلى أوضاع تاريخية تختلف في خصائصها عن تلك المؤثرات التي سادت في الشرق الإسلامي؛ ومن هنا جاءت دراساتهم لتاريخنا ـ في معظم الأحيان ـ متناقضة وغير دقيقة، بالإضافة إلى روح (الغربة) التي تعانيها.. فهي تحاول تفسير تاريخنا من وجهة نظر علمانية تفصل القيم المادية عن قيم الروح، بينما كانت فكرة (التوازن) بين هذه

القيم، والتي جاء بها الإسلام، المحرك الأساسي لتاريخنا الإسلامي، ومفتاح تفسيره.

(٣) أن تكون القاعدة الثقافية ـ العقائدية لمؤرخنا العربي المسلم منسجمة وطبيعة المؤثرات التي رسمت تاريخنا وشكلت مصيره؛ أي: أن تكون لدى المؤرخ (خلفية) فلسفية ينطلق منها للتنقيب عن حقائق التاريخ الإسلامي وتفسيره.

(٤) ذلك من الأمور البديهية في تاريخ الأمم والشعوب، وخاصة أمتنا العربية المسلمة التي ربط الله سبحانه ـ يوم أنزل كتابه الكريم ـ مصير البشرية بمصيرها، والتجربة الكبرى التي نلمسها من خلال دراساتنا للتاريخ الإسلامي هي أن الالتزام العقائدي هو الذي جعل أمتنا المسلمة (في بعض فترات التاريخ) أمة وسطاً، تشهد على الإنسانية ويشهد عليها الرسول عليه الصلاة والسلام.

(٥) ومن خلال ذلك كله تبدو ضرورة تشكيل جمعية علمية تعنى بمواضيع التاريخ الإسلامي على أسس جديدة؛ تؤمن بالقيم الأصيلة، وتتفاعل مع التطور الفكري القويم.. خاصة وأننا نجتاز فترة تاريخية غنية بتجاربها، وبحاجة شديدة إلى إلقاء الأضواء على طريقها الصاعد.




أثر الفكر الإسلامي في تفسير التاريخ

(ومندوب آخر وجَّه في العام نفسه سؤالاً عن أثر الإسلام في العملية التاريخية وظهور ابن خلدون. . والصفحات التالية تتضمن عرضاً موجزاً للجواب).

غفل الفكر البشري خلال عهد طويل عن ناحية مهمة من نواحي المعرفة؛ تلك هي:

(إدراك) مجموعة (الأسباب) التي توجه حركات وأحداث التاريخ في هذا الاتجاه أو ذاك، تلك الأسباب التي تتمثل في القوى والطاقات الغيبية والإنسانية والمادية التي صنعت التاريخ وتصنعه ـ فمنذ بدأ اختراع الكتابة، ولعهد طويل، كان المفكرون ينظرون إلى التاريخ نظرة سطحية لا تتعدى تسجيل حوادثه وحركاته واتجاهاته كما هي، دونما تعمق في إدراك العوامل التي جعلتها تحدث وتتحرك وتتجه بهذا الشكل، وربما كان من أسباب ذلك اعتقادهم بأن هذه الأحداث يجب أن تحدث هكذا، إذ كانوا يؤمنون، بشكل من الأشكال، بحتمية التاريخ، ومن هنا اقتصرت عملية (التاريخ) على التدوين. فإذا ما أردنا البحث في الوثائق والسجلات والدواوين والمخطوطات التاريخية التي ألفت في عهود الحضارات القديمة مثلاً ـ وعلى الأخص حضارتي وادي النيل ووادي الرافدين ـ فسوف لا نجد فيها سوى تدوين للأحداث التاريخية كما هي. . لقد كانت عملية التاريخ عملية كمية وليست كيفية. وهذا لايعني عدم اهتمام المفكرين الأقدمين بعملية (التاريخ)،

إذ إن طاقات فكرية كبيرة وجهت إلى هذا المجال، وجهوداً ضخمة بذلت فيه في عهد مبكر من عهود الحضارة، لقد كان من أبرز الآثار الحضارية في عصر فجر السلالات في العراق تلك المجموعة التاريخية الهامة من ألواح الطين كتبت عن الملوك وسني حكمهم، وعن السلالات الحاكمة وأماكن سلطانها أطلق عليها اسم (ثبت الملوك)، كما كان الكهنة المصريون في عهد المملكة القديمة في مصر يهتمون بتدوين تاريخ الفراعنة وسلطانهم بشكل ملحوظ..

كان هنالك إذاً اهتمام بالتاريخ، ولكن ما هي الأسباب في هذه السطحية التي اتسم بها الفكر التاريخي والتي جعلته يقف عند حدود التدوين لايتعداه إلى التفسير؟

من الممكن للإجابة على هذا السؤال، التأكيد على افتراضات ثلاثة: **أولها**: اعتبار عنصر الزعامة محوراً للتاريخ، **وثانيها**: عدم نزوع المعرفة البشرية نحو التكامل، **وثالثها**: ضآلة الرصيد التاريخي آنذاك.

عنصر الزعامة محور للتاريخ:

كانت البشرية في فجر الحضارة تتخبط في خضم من القيم الدينية والاجتماعية الزائفة، حيث لم يكن هنالك التزام واسع بالوحي الإلٰهي الذي ينير الطريق، لذلك كانت الإمكانيات الروحية ـ الدينية تتجه نحو تأليه أي مظهر (ضخم) من مظاهر الكون والحياة، كي تشبع نزعتها التي فطرت عليها، ونفس الشيء ينطبق على الإمكانيات الاجتماعية. وهكذا غدا (التأليه) يتجه أحياناً كثيرة نحو الأباطرة والملوك الذين لبسوا لبوس العظمة والجبروت وادعوا أنهم أبناء الآلهة في الأرض، لذلك اتجه المؤرخون لتعظيم هؤلاء الجبابرة، وصب طاقاتهم في هذا الاتجاه، ومن ورائهم طاقات الشعوب تنصب في الطريق نفسه.. فهؤلاء آلاف المصريين يسعون بالصخور الثقيلة لبناء الأهرام الضخمة التي ستضم أجساد الفراعنة، وهؤلاء

آلاف المواطنين في الشرق والغرب يجندون أنفسهم للحرب لتقديمها قرابين على مذبح (العظمة الإمبراطورية).. لا جرم إذاً أن يتجه الفكر إلى ما اتجهت إليه طاقات الجماعات؛ فيؤرِّخ للأباطرة والملوك، ويقدِّس ماقدسته الجماعات، ولا عليه بعد ذلك أن يجهد نفسه في البحث عن سر هذا التأليه وعن الغاية من بعثرة الطاقات الضخمة في سبيل إنسان واحد!

عدم نزوع المعرفة الإنسانية نحو التكامل:

في الأطوار الحضارية الأولى كان مبدأ (التجزئة) يحكم سلوك المعرفة، فلم تكن ثمة نظرة موحدة تهدف إلى معرفة القوانين التي تربط القيم والأشياء في العالم والحياة، فكانت توجه إلى ناحية ما، عازلة إياها عن النواحي الأخرى، بالرغم من احتمال وجود صلات قوية بينها، ولذلك كان إدراك ناحية ما يشوبه النقص والتشويه.

إن من أهم أسباب عدم النضج في المراحل الحضارية الأولى هي هذه النظرات المشتتة التي لا تربط الكون كله برباط، ولا تدرك مدى ما للعلاقات الخفية والظاهرة بين الأشياء من تأثير في معرفة طبيعة هذه الأشياء، وأبرز مثال على ذلك: عملية التاريخ؛ فالتاريخ عبارة عن (حياة متحركة) لا يعني الماضي ولا الحاضر فحسب، وإنما يشمل المستقبل أيضاً، بما يحرك في الفكر والوجود من رؤى نافذة في المستقبل البعيد تنبثق عن تعمق للأسس التي قام عليها الماضي، ويقوم عليها الحاضر، فعدم إدراك طبيعة هذه الحياة ومقومات تكوينها ومصادرها، يعني الجهل بالحاضر الذي يعيشه الإنسان، وعدم إدراك النتائج المتأتية عن هذه الحياة الحاضرة، تلك النتائج التي ستحكم المستقبل إلى حد بعيد، فتتكامل المعرفة فيما يتعلق بعملية التاريخ أساسي وضروري في فهم الحاضر والتخطيط للمستقبل.

وهذا التكامل يشمل تصوير التاريخ أولاً؛ أي: ما يسمى بعملية (التدوين)، ونستطيع تحقيق ذلك، إلى حدٍّ ما بتجميع الوثائق والمصادر

والروايات والسجلات، ثم تحليل العوامل التي أدت إلى أن يتخذ التاريخ هذه الصورة بالذات؛ وهو ما يُسَمَّى بعملية (التفسير)، إما أن تقتصر هذه العملية على عرض (الصور) جامدة غير متحركة ومبهمة لا إدراك لعوامل تكوينها، كما حدث في العصور الحضارية الأولى، فإنما يشير إلى عدم نزوع العقل نحو التكامل في المعرفة.

ضآلة الرصيد التاريخي:

يقصد بالرصيد التاريخي: مجموعة الحركات والأحداث التاريخية في فترة ما من الزمن.. وفي العهود الحضارية الأولى ـ القريبة نسبياً من فترة اختراع الكتابة واستخدامها في التدوين ـ كان هذا الرصيد ضئيلاً؛ فلم يكن أمام المؤرخين آنذاك سوى ما دوِّن من الوثائق والألواح، وهم بعدُ قريبو عهد بهذا التدوين، ولم يكونوا يعلمون شيئاً عن تاريخ ما قبل الكتابة، فلم يكن أمامهم من المادة التاريخية ما يغري بالتفسير ويدفع إلى البحث عن الأدلة والإثباتات من التاريخ نفسه، ويوجه الفكر إلى المقارنة بين حدث وحدث وبين حركة وحركة، والبحث عن أوجه الشبه والخلاف، والعوامل التي دفعت إلى التشابه أو الاختلاف؛ مما يؤدي إلى عملية تفسير شاملة للتاريخ تطلعهم على أسباب الأحداث والحركات ونتائجها المنطقية.

فلقد دفع (ماركس) ـ مثلاً ـ إلى تفسيره المادي الشامل للتاريخ ما وجده أمامه من هذا الرصيد التاريخي الضخم الذي شاهد بين حناياه ومن وجهة نظره الخاصة، ذلك التطور الحتمي في طبيعة التكوين الاجتماعي، ولمس من الأدلة ما دفعه إلى إخراج نظريته في المادية التاريخية (المادية التناقضية)، وما يقال عن ماركس يقال عن (شبنغلر) و(توينبي) وغيرهما.

(فكمية) الأحداث التاريخية إذاً لها أثر كبير في دفع المؤرخين إلى محاولة تفسير ما يدركونه من بعض الاتجاهات التاريخية المتصلة كسلسلة

محكمة، أو المتناقضة كقطبي المغناطيس، أو السائرة جنباً إلى جنب دونما اتصال أو انفصال.

إن الكمية التاريخية الضخمة تُبرِزُ دونما عناء كثيراً من المتشابهات، وكثيراً من المتناقضات، وكثيراً من القضايا التي ترتبط ببعضها لسبب ما، مما يلفت نظر الفكر التاريخي ليعرف سبب هذا التشابه وذلك التناقض، وتلك العلاقات، الخفية الموجهة، وكي يستطيع، بعد ذلك، تفهم حاضره على أساس علمي، ثم التخطيط لمستقبله والقضاء على عنصر (العفوية) التاريخية التي حكمت عهود الحضارات الأولى إلى حد كبير.

وخلاصة القول: هو أن المؤرخين لم يجدوا أمامهم في العصور القديمة والمتوسطة من الرصيد التاريخي ما يدفعهم إلى تفسيره، وإلى جانب السبب الأول في ضآلة هذا الرصيد؛ وهو قصر المسافة الزمنية، فهنالك سبب آخر هو قلة الوسائل الحضارية التي تساعد على الاطلاع على أكبر (عدد) ممكن من حركات التاريخ وأحداثه، وربما كانت الحضارة الحالية قد عرفت من التاريخ أكثره بسبب استخدامها وسائل عديدة للكشف والتنقيب، مما يجعل الرصيد التاريخي أضخم كمية وأغنى وأعمق تجاربَ إنسانية.

والذي نلاحظه في المرحلة الأولى من عملية التاريخ، وهي التدوين، من عدم اتجاه الفكر الإنساني إلى تفسير التاريخ، لا يعني عدم اتجاهه التفسيري للقضايا الأخرى في الكون والحياة، فمن فجر الحضارة كان يلاحظ هذا التوق الشديد لاستكناه كل عنصر من عناصر الطبيعة، وكل شيء من أشيائها، وهذا الاتجاه هو الذي أقام ذلك البناء الفلسفي الضخم في أثينة، وتلك العمارة الفنية الشاهقة في وديان الأنهار الشرقية، مما يعد الأسس الأولى للحضارة المعاصرة، لقد اتجه الفكر اليوناني إلى تفسير عناصر الوجود على أساس من التقسيم الواضح بين الطبيعة وما وراء الطبيعة

(الميتافيزيقا)، وبذلك رسمت الخطوط الأولى للفكر الثنائي (العلماني)، بينما راح الفكر الشرقي يفسر الأشياء في غمرة من النشوة والاندماج الوجودي (الكياني)، فجاء تفسيره أقرب للتعبير وأدنى إلى الفن منه إلى الفلسفة التجريدية، كان أفلاطون ـ مثلاً ـ ينظر إلى الشيء وهو خارج بكليته عن نطاق ذلك الشيء، ومن ثم يبدأ بتفسيره تفسيراً لا نجد في حناياه أية إشراقة من إشراقات الروح، بينما تجد بنتاؤور ـ مثلاً ـ شاعر مصر القديم، يريد أن يفسر فيقترب من الشيء ويتفاعل معه ويندمج به، فيكون تفسيره تعبيراً فنياً تشرق في حناياه ومضات الروح، هنا في الشرق، رسمت الخطوط الأولى للفكر الإنساني الذي يؤمن بوحدة الإنسان ويعبر عن معطياته المتداخلة.

ويمر الزمن، وتنمو الحضارة، وتزداد معطيات التاريخ، تعمق وتخصب وتغنى، وينتقل (البندول) الحضاري كي يشير تارة إلى الشرق، وأخرى إلى الغرب، ثم ليعود فيستقر فترة طويلة من الزمن في الشرق الذي دان لحضارة واحدة اتسعت وامتدت وشملت نصف العالم القديم؛ تلك هي حضارة الشعب المسلم، عندما التزم فكرته وتفاعل مع إسلامه. وكما سبق الشرق الغرب في فجر التاريخ، وأرسى حجر الزاوية الحضاري، فقد عاد من جديد ليضع حجر الزاوية لقطاع واسع من قطاعات الفكر، عندما جاء المؤرخ الكبير (ابن خلدون) ليقول كلمته في (تفسير التاريخ) لأول مرة!

لقد رسم ابن خلدون خطّاً واضحاً في تاريخ الفكر عندما كتب مقدمته في التاريخ، ولما كان تفسير التاريخ يعني البحث في العلاقات الاجتماعية في إطارها التاريخي وطبيعة تكوينها وقوى توجيهها، فلقد اعترف المفكرون المحدثون بأن ابن خلدون وضع حجر الأساس لعلم الاجتماع، وإن دفع التعصب، بعضهم، إلى عدم الاعتراف بذلك، وأصروا على أن (أوغست كونت) هو أول واضع لعلم الاجتماع.

ماذا حل بتلك الافتراضات الثلاثة التي منعت الفكر من أن يطرق هذا الموضوع قبل مرحلة الحضارة الإسلامية؟

لقد جاء الإسلام ليقول كلمته في هذا المجال، وليفتح الطريق أمام الفكر كي يفسر التاريخ على أساس من طبيعة العلاقات السالبة والموجبة، بين قوى الله المطلقة وبين الإرادة الإنسانية المحدودة التي تصنع التاريخ دونما تدخل من أية قوة أرضية حتمية، والإرادة الإنسانية كسبب من أسباب الله في الكون، هي التي توجه التاريخ وتشكله، وكما رسم الإسلام الخطوط العريضة في كل مجال من مجالات الحياة، فقد رسم هذه الخطوط في معظم مجالات الفكر، وهكذا وضع الأسس الثابتة التي يجب أن ننطلق منها لتفسير التاريخ، تلك التي من الممكن البحث عنها في القرآن ودراستها تحت عنوان (التفسير الإسلامي للتاريخ).

عاش ابن خلدون في بيئة إسلامية لا تؤمن بالزعامة المؤلهة، ولا تتخذها محوراً للفعاليات الاجتماعية ولا هدفاً لاتجاهات الفكر، وعلى الرغم من حدوث انحرافات كثيرة عن الفكرة الإسلامية التي ساوت بين الناس، وجعلتهم كأسنان المشط، ولم تفرق بين الرئيس والمرؤوس إلّا في حدود التقوى والمسؤولية، إلا أنها انحرافات لم تكن على درجة بالغة يعود معها الزعماء كما كانوا قبل الإسلام آلهة، أو أبناء آلهة تنصب حواليهم كل القوى والطاقات الاجتماعية ـ لقد تحرر الإنسان المسلم من هذه الخرافة، وكان منطلقاً في ذلك من عقيدته الخالصة في التوحيد، وفي القضاء على ربوبية البشر من دون الله.

إن الطاقات الإنسانية في (المجتمع الإسلامي) لم تعد تصبُّ في معين الفرد الواحد، بل يجب أن تذهب إلى المجتمع نفسه، وأن تخدم الحقيقة وحدها، وهكذا رأينا الفكر الإسلامي ـ في قطاع التاريخ ـ لا يتجه، على مافيه من انحرافات، إلى التدوين التاريخي الذي يتحدث عن الزعماء

فحسب، بل وأخذ يهدف إلى البحث عن الحقيقة التي تكمن وراء أحداث التاريخ دونما زلفى أو رياء، وكان ابن خلدون أوضح مثال على ذلك.

وقد رأينا أن الفكر في الفترة التي سبقت الإسلام لا ينزع إلى تكامل المعرفة مما كان سبباً في اقتصار عملية التاريخ على التدوين لا تتعداه إلى التفسير، ولما جاء الإسلام أعطى للفكر الإنساني صورة متكاملة عن الكون والحياة والإنسان، وأقام بناءه العقائدي على أساس من هذه النظرة الشاملة، وعلم الإنسان ما لم يعلم، علمه كيف يصل إلى الحقائق عن طريق التكامل وعدم التجزئة، وكيف تضيع هذه الحقائق عندما لا ينظر الإنسان إليها ككل مترابط متصل، ودفعه إلى البحث عنها والوصول إليها. فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها التقطها، هذا إلى أنه رسم منهجاً متكاملاً لتفسير تاريخي أعطى صوراً تطبيقية له في تفسير بعض العلاقات التاريخية، وما يتمخض عنها من أحداث ونتائج، وأشار على الفكر أن يمعن النظر في أحداث التاريخ ليستخلص منها الطريق القويم الذي عليه أن يسلكه كي لا يحيق به ما حاق بالأولين، وتجري عليه سنة الله ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلًا﴾، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ هذا ـ وغيره ـ كان عاملاً مهمّاً في دفع الفكر الإسلامي في طريق المعرفة المتكاملة، وهو بدوره من الأسباب التي أدت إلى أن تتجاوز عملية التاريخ مرحلة التدوين إلى التفسير والتوصل إلى المقومات الأساسية لحركة التاريخ وأهدافه. وكان ابن خلدون أبرز مثال على هذا الفكر الجديد.

أما فيما يتعلق بالرصيد التاريخي؛ فلقد ازدادت المسافة الزمنية بعداً بين عصر اختراع الكتابة وبين عصر ابن خلدون؛ ممَّا جعل هذا الرصيد أضخم وأكثر وأغنى وأشد إغراء بالبحث والتنقيب عن أوجه التشابه والاختلاف في التجارب التاريخية، والأسباب التي أدت بها إلى أن تكون هكذا، مما أدى إلى ظهور التفسير التاريخي.

وهكذا نجد أن العوامل التي منعت الفكر قبل الإسلام من الانتقال إلى الشق الثاني من عملية التاريخ؛ وهو التفسير؛ هذه العوامل كانت قد ضعفت إلى حد كبير في المجتمع الإسلامي بفضل الفكرة الإسلامية.

ولا يزالون مختلفين ولذلك خلقهم

تعقيب على نقد

الأستاذ يوسف كمال محمد

عندما كتبت المقال المعنون بـ (الصراع)... والذي نشر في العدد الافتتاحي من مجلة (المسلم المعاصر)، لم يخطر ببالي لحظة أن أخضع المبادئ القرآنية الخالدة، والسابقة في الزمن، للمعطيات الوضعية النسبية المتغيرة، كما يبدو من مناقشة الأخ الكاتب. وكان المنهج الذي اعتمدته في كتابة سائر الفصول التي ستصدر قريباً بإذن الله تحت عنوان (التفسير الإسلامي للتاريخ)، أن أجمع جل الآيات والمقاطع القرآنية عن كل مسألة من المسائل الأساسية في تفسير التاريخ من أجل استخلاص دلالاتها ومؤشراتها، ومقارنتها ـ من ثم ـ بالنظريات الأساسية في تفسير التاريخ، وبخاصة المثالية والمادية والحضارية. ومن طبيعة الدراسات (المقارنة) أنها تقود إلى تبيان أوجه الشبه والخلاف بين التيارات المختلفة، ولن يحمل ذلك أي معنى من معاني القسر والإكراه لجعل القرآن العظيم شاهداً على نظرية ما من نظريات التاريخ الغربية!!

والمقال المذكور لا يعدو أن يكون صفحات فحسب، في بحث يتناول بالتحليل الموسع مسائل أخرى كثيرة غير (الصراع)؛ كالتسخير والاستخلاف والتوازن والتكامل..

وغيرها. . يتمم الصورة القرآنية في أبعادها المختلفة، كما تضمن البحث المذكور في فصله الأول عرضاً للمذاهب الوضعية في تفسير التاريخ، وأهم الانتقادات التي وجهت إليها. . ومن ثم أرجو أن أكون عند حسن ظن الأخ الكاتب الذي اختتم نقده بهذه العبارة: «لنفهم حقيقة هذه المذاهب بعمق، حتى ننقدها بأصالة ونحكم فيها كتاب الله، لا أن نحكمها على كتاب الله».

وأعود فأؤكد أن (الصراع) وإن لم يرد بصيغته اللغوية هذه في كتاب الله، إلا أنه ورد من خلال عديد من الصيغ والمصطلحات تضمنتها آيات قرآنية قاطعة في دلالتها على أن هذا الدين ما جاء لكي يقود الجماعة المسلمة إلى أحلامها وأمانيها عبر عالم لا صراع فيه. . . إن الصراع قائم في نفوسنا وفي عالمنا على السواء. . وإن الجهاد الأكبر والأصغر اللذين كتبا علينا لم يكتبا عبثاً. . . وإن رسولنا (عليه السلام) قالها بوضوح: «الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة»، وهو يعلم أن اليوم الذي سينعدم فيه الصراع غير موجود إلا في الجنة. . لأن الشيطان وأتباعه من الإنس والجن وضعوا بحيث يظلون حتى النهاية في مواقع التحدي والاستفزاز من أجل أن تدفع المؤمنين إلى مزيد من شحذ الهمم والقدرة على الرد والحركة. . . ومن خلال هذا التقابل الذي أراده الله سبحانه منذ لحظة خلق آدم، يتدفق مجرى التاريخ البشري ويزداد غنى وامتلاء: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾، ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾. . ولذلك خلقهم!! وصدق الله العظيم. .

ومن ثم فإن قول الأخ الكاتب بأن التفسير القرآني للتاريخ أساسه الرحمة لا الصراع، قول يعرض علينا المسألة من إحدى جوانبها فحسب، ويقع في مظنة استبعاد الصراع كمنطلق أساسي لفهم كثير من المواقف القرآنية التي ورد بعضها قبل قليل، ووردت مجتمعة في البحث المشار إليه آنفاً.

وإذا كنا نأخذ على الوضعيين نظرتهم (الواحدية) للتاريخ، فلنا أن نتجاوز هذه المواقف، وأن نسلط الضوء على المسألة التي بين أيدينا من كافة جوانبها، دونما توتر أو تحيز أو انفعال. ولقد ورد في تقديمي للتفسير الإسلامي للتاريخ: «إن ثمة فرقاً (منهجياً) حاسماً بين المذاهب الوضعية وبين المذهب الإسلامي في تفسير التاريخ.. في الأولى تصاغ حقائق التاريخ وفق المذهب (المصنوع) سلفاً، فتقسر على الانسجام مع وضعية المذهب، وتساق للتدليل عليه وتأكيده. وهذا الخطأ يجيء من حقيقة أن وقائع التاريخ سبقت في الزمن تخطيط المذاهب، ومن ثم فإن المذاهب جاءت كقضية (بعدية) تسعى إلى أن تجبر (القبليات) على التشكل بها. وهذا التأزم المذهبي، هذا التحديد الصارم للنظم التي تتبعها الوقائع التاريخية في سيرها، هذا التوتر في التزام هيكل نظري مسبق، تساق أحداث التاريخ للتدليل عليه بالحق والباطل، والذي بلغ أقصى حدته في المادية التاريخية، دفع عدداً من المفكرين الأوروبيين إلى اتخاذ موقف معاكس تماماً، يمثل ردّ فعل إزاء الموقف السالف، بحيث إنهم رفضوا القول بخضوع الحركة التاريخية لأي ناموس أو سنة، ومسيرتها وفق أي نظام مهما كان. وقد بلغ هذا الموقف ـ غير الموضوعي هو الآخر ـ أقصى حدته على يد (كارل بوبر) في كتابه (عقم المذهب التاريخي)».

«أما في القرآن؛ فإن التفسير ينبثق عن رؤية الله سبحانه، وهي تختلف عن الرؤية الوضعية في أنها تحيط علماً بوقائع التاريخ، بأبعادها الزمنية الثلاثة: الماضي والحاضر والمستقبل، وببعدها الرابع الذي يغيب كثيراً عن ذهن الإنسان مهما كان على درجة من اللماحية والبصيرة والذكاء، البعد الذي يغور في أعماق النفس البشرية فيلامس فطرة الإنسان وتركيبه الذاتي، والحركة الدائمة في كيانه الباطني، وينسرب بعيداً صوب اهتزازاته العقلية والعاطفية والوجدانية، وإرادته المسبقة، وما تؤول إليه هذه جميعاً من

معطيات تمنح حركة التاريخ أبعادها الحقيقية، ويمتد ـ كذلك ـ لكي يشتبك في العلاقات الشاملة للمصير، ذلك أنها رؤية الذات الإلٰهية التي وسعت كل شيء علماً، والتي صنعت الواقعة التاريخية ووضعتها في مكانها المرسوم من خارطة التاريخ البشري والكوني على السواء... الرؤية الوضعية تمتد إلى الماضي لتقبس منه و (تختار) ما يعزز وجهات نظرها المسبقة، والرؤية القرآنية تحيط بالماضي لكي تكثفه في قواعد وسنن تطرح أمام كل باحث في التاريخ يسعى إلى فهمه، وإلى أن يرسم على ضوء هذا الفهم، طرائق حياته الحاضرة والمستقبلة، باعتبار أن الأزمان الثلاثة إنما هي وحدة (حيوية) تحكمها قوانين واحدة كتلك التي تحكم الحياة سواء بسواء...».

إن مقال (الصراع...) المنشور لا يعدو أن يكون جزءاً محدوداً من (كل) أكثر شمولاً، تضمن فيما تضمن كل المسائل التي أشار إليها الأخ الكاتب.. ولن تغني مناقشة الموضوع قبل أن تتاح للأخ الكاتب فرصة الاطلاع الشامل عليه من أجل أن يكون النقد أكثر موضوعية واستشرافاً. وأكثر فائدة لكل من يضرب في يم الفكر، ويتمنى على إخوانه أن يعينوه على الطريق بتوجيههم القيِّم وتحليلهم السديد... قبل أن يصبح من الهالكين...

نقد للملاحظات

أشكر للأخ أبي القيم الكبيسي ملاحظاته الأخوية المنشورة في العدد (٨٨-٨٩) من (الرسالة)، والتي يناقش فيها خاطرتين كنت قد نشرتهما في المجلة نفسها العدد (٧٨-٧٩) تحت عنوان (ملاحظات)[١]. . وإن المرء ليتعلم حقّاً من مناقشات كهذه تعتمد أسلوباً في الحوار هادئاً غير منفعل ولا متوتر، نحن بأمس الحاجة إليه.

يعترض الأخ أبو القيم على نقاط أربع وردت في الخاطرتين المذكورتين. . وأنا معه في واحدة منها، ولست معه في ثلاث. .

١ ـ **يقول في اعتراضه الأول:** إن صاحب المقال «لا يني في استعمال كلمة (غزو) للفضاء، وهو استعمال يعكس مدى العداء المستحكم الذي حاول الفكر اليوناني أن يجسده بين الإنسان والطبيعة، وحتى لو أن الاستعمال للكلمة جاء لمجرد نقل ما عند الغير ـ كما هو ـ فلا بد من أن نشير لوضع هذه الكلمة المنحرف».

وليس أدل على انحراف الكلمة بالذات، والموقف الغربي ذي الجذور اليونانية على وجه أعم، من العبارات التي أوردتها بهذا الصدد: «. . الموقف البشري الذي كثيراً ما يتميز بالغرور والانتفاخ والتعاظم، والاعتقاد بأنه لا شيء يقف في طريق الإنسان ليصده عن بلوغ أهدافه، وإنه لا توجد قوة في الكون، حتى الله (جلَّ وعلا) تقف قبالة مطامحه، وإنه

(١) انظر: كتاب (آفاق قرانية) للمؤلف، دار العلم الملايين، بيروت - ١٩٧٩م.

بغزوه للفضاء واجتيازه عتبات الكون الأولى سيواصل طريقه صعداً، وسيكتشف، أو قد اكتشف، كما قال أحد رواد الفضاء: أنه لا إلٰه هناك، وأن ليس إلا الإنسان وحده في الكون.. لكي ندرك بعد هذا كله كيف يضعنا القرآن الكريم، على أرضيتنا الحقيقية، ويدفعنا لأداء مهمتنا دون زيف أو غرور أو مبالغة أو تضخُّم مرضي في التصور..».

ومن ثم فإن كلمة (غزو) تأتي هنا تعبيراً عن قصور الموقف الغربي الذي يتميز بالزيف والغرور.. إلخ وليس ثمة أكثر من هذا في إيضاح الوضع المنحرف لهذه الكلمة التي وردت في المقال مرة واحدة، وليس كما ذكر الأخ الكاتب من أنني لم أنِ في استعمالها.

٢ ـ **اعتراضه الثاني**: يشير إلى أنني سحبت مسألة الشيخوخة الزمنية للكلمات على ألفاظ القرآن الكريم نفسه «مع أن هذا القياس إذا يصدق على لغة الناس ومفرداتهم؛ فهو أبعد ما يكون عن القرآن؛ لأن معجزة القرآن هو أن يبقى طريّاً طازجاً كابن لعصر الناس على مسار عملاق الزمن»، وكذلك الأمر مع التكرار «فإن التكرار للفظ من صناعة الناس قد يقربه لأن يكون مشاعاً غير سائغ، أما التكرار مع ألفاظ القرآن فلا تتمشى مع هذا القانون الصادق على ألفاظ الناس.. إن معجزة القرآن أنه لا يَخْلق على كثرة الرد».

ورغم أنني قد أشرت أكثر من مرة إلى أن شيخوخة الكلمات لا تعتمد على طرف واحد، أي على اجتياز الكلمة لمسار زمني طويل، وإنما الطرف المقابل الذي هو الإنسان نفسه، الذي قد يلحق موقفه السالب، وجهله، أذى كبيراً بالمعنى الحقيقي للكلمات.. ورغم أني أكَّدْت في ختام الخاطرة على أنه بمجرد تحريك الموقف الإنساني فإننا سنعود ثانية إلى المعنى الأصيل لكلمات الله المعجزة التي ما لها من نفاد.

رغم هذا وذاك، فإنه كان يتحتم عليَّ حقّاً أن أفصل وبشكل قاطع بين كلمات الله الخالدة، وبين كلمات الإنسان المتغيِّرة الزائلة، وأن يكون هذا الفصل على قدر كبير من الوضوح.. وإنني أسلم برأي الأخ أبي القيم في هذه النقطة الخطيرة بالذات.

٣ ـ **في الاعتراض الثالث**: يشير إلى أن أصحاب القلوب الغلق والآذان الصم؛ لا يمكن بطبيعة تكوينهم أن يهتدوا إلى الدين الجديد من خلال سماعهم لكلمات القرآن.. ثم يقول: «ولا أدري كيف فات صاحب المقال: أن علاقة اللفظ القرآني بمعناه علاقة تلازمية؛ فإذا سحر اللفظ بمبناه نفر القلب من معناه.. إن صاحب القلب الأغلق إذا سحر بما يسمعه فهنالك في قلبه ما يمنعه..».

لم ترد في كلمتي عبارة (القلوب الغلق)، وإنما (الغلف)؛ أي: القلوب المغلفة بضلال الجهل، وليست المغلقة بشكل نهائي قاطع لا أمل معه بهدايتها.. والقول بأن أصحاب هذه القلوب لا يمكن هدايتهم حتى النهاية أمر ليس بمقطوع فيه؛ لأن الأديان ما جاءت إلَّا لكي تقود الناس جميعاً، حسنهم ورديئهم، مستقيمهم وأعوجهم، عالمهم وجاهلهم إلى الحق.. ولأن القرآن الكريم ما جاء لكي يخاطب الصفوة من الناس، وإن كلماته المعجزة كانت على درجة من القوة والتأثير؛ بحيث إنها استطاعت في كثير من الأحيان أن تكسر رين القلوب الغلف، وتفتح أبوابها، وأن تسمع نداءها لأشد الآذان استعصاء على السمع..

إن كل بني آدم خطّاء ـ كما يقول الرسول عليه الصلاة والسلام ـ وإن خير الخطائين التوابون.. وإن هنالك شهادات تاريخية عديدة ترد في كتب السيرة (ابن هشام، الطبري، البلاذري، ابن سعد، الواقدي.. إلخ) عن عديد من رؤوس الضلال الجاهلية، طرقت قلوبها القاسية وأسماعها الغليظة كلمات الله، فهزتها وقادتها إلى مواقع الدين الجديد.. إلى مواقعه

الأمامية.. وقول القرآن الكريم: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾؟ يحمل في الوقت نفسه الجانب الإيجابي للموقف البشري، فهناك من التدبر ما يفتح أشد الأقفال استعصاء، ويقود أصحابها إلى الحق، بينما تظل فئة أخرى، ممن ختم الله على قلوبها، متشبثة بأقفالها غير مستعدة حتى النهاية لسماع صوت الحق والانتماء إليه... فالمسألة (نسبية)، وهنالك في تاريخ الدعوة الطويلة نماذج لهؤلاء ولهؤلاء.

وأما عدم الالتفات إلى العلاقة التلازمية بين مبنى اللفظ القرآني ومعناه، فيكفي أن أستعيد هنا بعض فقرات الخاطرة المذكورة لكي يتبين ـ على العكس ـ التأكيد الواضح على هذا الارتباط «من أجل هذا كان العرب عند ظهور الإسلام أكثر تواصلاً مع كلمات القرآن واندماجاً في آياته، وإدراكاً لمضامينه، وإحساساً غامراً بمواطن إعجازه اللغوي، ذلك أن كثيراً من مفرداتهم وتعابيرهم كانت ـ بعد ـ في ميعة الصبا وعز الشباب تتألق روحها تألُّقاً ظاهراً، ويزدهي جوهرها بجماله الذاتي الفتان دونما طلاء خارجي مصطنع. كانت علاقاتهم العفوية بلغتهم تدفعهم ـ دونما تكلف ـ إلى أعماق معانيها ودلالاتها. وهذا هو الذي قاد قلوباً غلفاً وآذاناً صمّاً إلى أن تتفتح وترمي عنها الحجاب، وتحث خطاها إلى دين جديد هذا قرآنه وتلك آياته.. أو على الأقل دفعها ـ رغم تشبثها بمواقع الجاهلية ـ إلى أن تعرب عن دهشتها وحيرتها وإعجابها بسحر الكلمات القرآنية وجمال آياته المعجز.. تماماً كما قاد العرب من ناحية أخرى إلى أن يدركوا بوضوح المغزى العميق البعيد للقيم الانقلابية التي طرحها الإسلام، فازدادوا جحوداً ومقاومة وشراسة وإنكاراً...»...

وإذن فإن الخاطرة قد تضمنت حتى النماذج الجاهلية التي سحرها اللفظ وصدها المعنى، مما أراد أن يشير إليه الأخ كاتب المقال.

٤ ـ **أما الاعتراض الرابع:** فينصب على ضرورة التأكيد على أن تبعة الشيخوخة اللغوية يجب أن لا تلقى على عاتق الكلمات نفسها، وإنما على المتعاملين معها.

وأغلب الظن أنني وأبا القيم ذهبنا ضحية خطأ مطبعي لا يتجاوز الحرفين، لكنهما من النوع الذي يقلب المعنى رأساً على عقب.

في الفقرة الأخيرة من صفحة ١٤ وردت العبارة بالشكل التالي:

«إننا يجب أن نلقي التبعة على الكلمة وحدها، التي قطعت آلاف الأميال.. إلخ»، وكانت في الأصل «إننا يجب ألا نلقي التبعة على الكلمة وحدها».

أشكر للأخ الكاتب مرة أخرى ملاحظاته القيمة، ومناقشاته الهادئة، ومن الله التوفيق...

واحد من اثنين!!

لم يعد البحث التاريخي، في عصر التخصص والمنهجية، جهداً كيفيّاً تملأ فيه السطور والصفحات كيفما اتفق، وتذبح الحقائق، ويحكم على الوقائع التاريخية بالتزييف والتزوير.

البحث التاريخي كالبحث في أية مسألة فيزيائية أو معضلة هندسية، لا بد فيه من استكمال أدوات العمل، إذا ما أراد الباحث أن يقدم شيئاً ذا قيمة، أو يكشف عن حقيقة مطمورة، أو يعيد عرضها وفق منظور جديد.. لا بد أن يكون الباحث متمكناً من كافة مفردات التركيب المنهجي وفق تسلسله وارتباطاته الضرورية. ولا بد له كذلك من أن يمتلك (اللغة) التي يستطيع بواسطتها أن (يعبِّر) بدقة عن الحقائق والأفكار التي يتضمنها بحثه.

هذه واحدة..

ثم إن تاريخ أية أمة من الأمم، يمثل ـ كما هو معروف ـ جذورها في الأرض، ومراحل النمو التي مرت بها شخصيتها الحضارية، وتعبيرها الذاتي عبر تفاعلها المستمر مع الزمان والمكان.. وليس ثمة عطاء قدمته أمة من الأمم إلا وهو يتضمن الأبيض والأسود، فتلك هي سنة الحياة.. وكل بني آدم خطّاء، وخير الخطائين التوابون، كما يقول الرسول عليه الصلاة والسلام..

إلا أن الكشف عن جوانب السلب والإيجاب في تاريخ أمة ما من الأمم لا يقتضي ـ بالضرورة ـ سحب المساحات السوداء لكي تغطي على

المساحات البيضاء، أو تدخن عليها.. إن هذه المحاولات القسرية تتم، يوم تتم، على يدي واحد من اثنين:

رجل لا يملك الأدوات المنهجية ولغة التعبير التاريخي، ولكنه يملك حسن النية وهذا وحده لا يكفي.. وآخر لايملك حسن النية فيتعمد ـ لسبب أو آخر ـ إساءة التركيب المنهجي، أو التعبير الدقيق، لكي يصل إلى نتائج مرسومة تستهدف تشكيك الأمة بأشد معطياتها التاريخية نصاعة وبياضاً..

ولا أعتقد أن أستاذاً متخصصاً في الآثار في مقال له عن (مسجد قرطبة الجامع)، المنشور في مجلة الجامعة (تشرين الثاني ١٩٧٨م) واحد من هذه الفئة الأخيرة.. فالرجل ـ كما هو مفروض ـ يمتلك حسن النية، بدليل موضوعه البنائي نفسه..

فما الذي دفعه ـ إذن ـ إلى اعتبار فتح المسلمين لإسبانية: احتلالاً؟

إننا نقرأ، عبر الأسطر الأولى لمقاله، هذا التعبير يكرر نفسه مرتين، فهو يقول: «بدأ فتح بلاد الأندلس عام ٩١هـ / ٧١٠م بسرايا أرسلها موسى بن نصير من شمال إفريقية، وفي عام ٩٢هـ / ٧١١م تم احتلال المسلمين لقرطبة، وما أن حل عام ٩٦هـ / ٧١٥م حتى دخل موسى بن نصير دمشق في موكب نصر معلناً احتلاله كافة بلاد الأندلس».

إنه ولا ريب السبب الأول: غياب القدرة المنهجية التي تتابع بأكبر قدر من الأمانة واقعة تاريخية كبيرة كالفتح الإسلامي وصولاً إلى دلالاتها النهائية.. واللغة التي تختار أدق التعابير وأكثرها تطابقاً مع هذه الدلالات.. ويبدو أن الدكتور صاحب المقال إذ أحسن في عرض الجانب الآثاري لموضوعه، أخطأه المنهج واللغة في مقدمة مقاله ذات الجانب التاريخي الصرف.

لا يتسع المجال ـ في هذا التعقيب السريع ـ لتحليل الدلالة التحريرية للفتح الإسلامي، ولا إلى القول بأن الاحتلال هو شيء آخر ـ تماماً ـ نقيض للتحرير.. ونحن نعرف ما الذي فعله الاستعمار في البلاد التي احتلها، ونعرف كذلك ما الذي فعله الفاتحون المسلمون في الأراضي التي دخلوها... ولكن يكفي أن نشير إلى ما أكَّده مؤرخو إسبانية أنفسهم، وهم ليسوا عرباً ولا مسلمين، من أن الحرية التي شهدها تاريخ الجزيرة الإسبانية في العصر الأندلسي هي أوسع مدى بكثير مما عرفته الجزيرة قبل الفتح وبعده.. وإذا كان اليهود والنصارى قد استطاعوا الاستمرار والامتداد في ظلال الفتح، فإن المسلمين استؤصلوا استئصالاً، ومورست تجاههم أبشع أنواع الاضطهاد والإفناء في ظلال محاكم التحقيق..

فإذا كان الإسبان أنفسهم يمنحون الفتح الإسلامي، على ضوء الوقائع التاريخية، تقييمه الحقيقي، أفنكون نحن أكثر ملكية منهم، لا لشيء إلا لأننا لم نتحمل مسؤولية اختيار التعبير الدقيق؟

أم أننا ـ على أسوأ الاحتمالات ـ تعمدنا اختياره لكي يقود إلى الدلالة المطلوبة؟ ولكنها ـ يقيناً ـ ليست الدلالة الحقيقية؟




الإسلام لَيْسَ تُراثاً

أثار الأخ فهمي هويدي في العدد ٢٢٣ من مجلة (العربي) تحت عنوان (الماضي معروضاً للبيع) موضوعاً يستحق المناقشة حقّاً، بما أنه موضوع (الساعة) الذي يغطِّي اليوم مساحات واسعة من صحفنا ومجلاتنا ومؤلفاتنا ويستثير اهتمام مثقفينا أيّاً كانت ميولهم وتجاهاتهم.

إنه يريد أن يقول ـ باختصار ـ: إن المبالغة في الالتفات صوب الماضي والإغراق فيه سوف يصدنا عن الاهتمام الكافي بالمستقبل، ومتابعة ما يمكن أن يستجدَّ فيه من مشاكل وتعقيدات، والتخطيط المدروس لها. ويسوق للتدليل على ذلك، ما يحدث في العالم المتقدم من اهتمام جاد بالمستقبل، ويعرض لعدد من الدراسات القيمة التي كتبت عنه، بينما لم يصدر في بلادنا لحدِّ الآن ما يشير إلى أن ثمة وعياً جادّاً بالمستقبل قد بدأ يتبلور.

ولكيلا يحدث أي سوء فهم لوجهة نظره هذه يطرح في البداية هذا السؤال: «هل المطلوب أن نخاصم الماضي ونقاطعه» ويجيب عليه بوضوح: «بالتأكيد لا؛ لأننا إذا اقتلعنا الماضي من أذهاننا فسيظل باقياً في أعماقنا. وشعوب لها حضارة عظيمة مثل شعوبنا لابد وأن تعتز بهذا الماضي وتطعم كل ما هو جديد بقيمه النبيلة التي ينبغي أن تستمر وتبقى.. ثم إن الضياع الحقيقي هو مصيرنا إذا انفصلنا عن هذا الماضي وعشنا في عزلة عنه». ما هو الاعتراض إذاً؟! ألّا «يتحول الماضي إلى عبء يثقل كاهلنا، ويعوق تقدمنا إلى الأمام من ناحية، ثم أن تكون كل حركاتنا محصورة في هذا

الماضي بحيث ندير ظهرنا للعالم، الأمر الذي يحجب عنا رؤية الحاضر والمستقبل». . ثم يندد بجعل الاهتمام بالماضي هدفاً وليس وسيلة، لدى البعض، وطريقة للمحاكمة والتشهير لدى البعض الآخر. . فهو يرفض إذن ما يقود إليه التشبث المرضي بالماضي من سكونية وانفصام حضاري، ويرفض في الوقت نفسه أن يتحول الماضي، بمنجزاته العظيمة، إلى لعبة سهلة بأيدي أولئك الذين يحلو لهم ـ لسبب أو آخر ـ أن يقطعوا الجذور، وهم يعلمون ـ أو لا يعلمون ـ أن ذلك يقود الأمم إلى الانتحار.

ما الذي يقوله كتاب الله؟

إن نظرة متمعنة إلى كتاب الله تمنحنا المزيد من الإشارات عن ضرورة وجود قدر كافٍ من الجدل الفعَّال بين الماضي والمستقبل ـ ومروراً بالحاضر ـ من أجل حماية المصير البشري مما قد يحدق به من أخطار ونكبات، ويحذرنا من ألاّ يكون هنالك أي ارتباط جاد بين النظر إلى الماضي وبين تكوين رؤية مستقبلية لصالح الإنسان في العالم.

صحيح أن التأكيد على (التاريخ) يرتبط بالقرآن الكريم ارتباطاً وثيقاً. . أي سورة قرأت، أي صفحة شاهدت. . طالعتك هذه العروض، والإشارات المسهبة أو الموجزة إلى مواقف تاريخية، لا ريب أنها تشكل بمجموعها نسقاً متكاملاً للتفسير الإسلامي للتاريخ. . ولكنه (التأكيد) الذي يخلص ـ كل مرة ـ إلى دعوة المتأملين والدارسين إلى الخروج، في أعقاب مطالعاتهم التاريخية، بنتيجة نهائية عن مصير الحركة البشرية في الزمان والمكان، ودور الإنسان والقوى الكونية في آمادها القريبة والبعيدة.

إن جانباً كبيراً من سور القرآن وآياته البينات ينصبُّ على إخطار البشرية بالنذير الإلٰهي، وينبثق عن رؤية وتفحص التاريخ، وأن أشد نداءات المفكرين المعاصرين عمقاً ووضوحاً تلك التي تحدثنا عما يحيط بالمسيرة

البشرية، في حاضرها ومستقبلها، من أوضاع، وعما تتطلبه من شروط، وتنبثق هي الأخرى عن رؤية التاريخ، ونحن إذا نظرنا إلى التجارب الأوروبية المتلاحقة في عالمي الفكر والحياة، رأيناها تمد بجذورها إلى أعماق التاريخ، باحثة عن المبررات والحجج والأسانيد، متطلعة إلى الصيغة الأكثر علمية وانطباقاً على واقع المسيرة البشرية، من أجل أن تعتمد في التحرك على أرضية الواقع صوب المستقبل، وليست تجارب الثورة الفرنسية والعسكريات الألمانية والاشتراكيات الغربية والشرقية والدعاوى الصهيونية في أبعادها الفكرية (الإيديولوجية) والواقعية العملية، إلا نموذج فحسب لدى الارتباط بين الفكر والتجربة وبين الرؤية التاريخية.

الحركة هي الهدف

إن القرآن الكريم لا يقدم (قصصه) و(صوره) و(مشاهداته) لمجرد ترف ذهني، أو إشباع حاجة المؤمنين إلى القصص والمشاهدات، ولا لنزعة (أكاديمية) فيه تسعى إلى تتبع (ما حدث فعلاً) بأكبر قدر من الأمانة، ودون اكتراث للمدلولات الكبرى لهذا الذي (حدث) وإشاراته الأخلاقية. إن القرآن يجيء بمعطياته التاريخية تلك من أجل أن يحرك الإنسان صوب الأهداف المستقبلية التي رسمها الإسلام، ويبعده في الوقت نفسه، فرداً وجماعة، عن المزالق والمنعرجات التي أودت بمصائر عشرات، بل مئات، من الأمم والجماعات والشعوب.

فالحركة لا مجرد الاهتمام الأكاديمي، بالماضي، أو السرد الفني، الذي هو مجرد أسلوب أو وعاء لغوي، كانت أبداً هدف العروض التاريخية للقرآن، كما أنها في الوقت نفسه هدف الإيديولوجيات المعاصرة التي سبرت، بدرجة أو أخرى، أغوار التاريخ البشري، وقدمت برامجها ومخططاتها وفق التعاليم التي تمخَّضت عن تلك الرحلات الطويلة في ميادين التاريخ ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾.

﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

منهج جديد:

إن القرآن الكريم يقدم أصول (منهج) متكامل في التعامل مع التاريخ البشري، والانتقال بهذا التعامل من مرحلة العرض والتجميع فحسب إلى

محاولة استخلاص القوانين التي تحكم الظواهر الاجتماعية ـ التاريخية، كما فعل ابن خلدون فيما بعد ـ على سبيل المثال ـ فأعطى بذلك الإشارة لغيره من فلاسفة التاريخ الذين ما تلقوا إشارته وبنوا عليها إلّا بعد انقضاء عدة قرون. وهذا يتمثل بالتأكيد المستمر في القرآن على قصص الأنبياء وتواريخ الجماعات والأمم السابقة، وعلى وجود (سنن) و(نواميس) تخضع لها الحركة التاريخية في مسيرها وتطورها وانتقالها من الماضي صوب الحاضر والمستقبل.

إن المنهج الجديد الذي يطرحه القرآن يؤكد أكثر من مرة على أن الماضي لا يكتسب أهميته الإيجابية إلا بأن يتخذ ميداناً للدراسة والاختبار، تستخلص منه القيم والقوانين التي لا تستقيم أية برمجة للحاضر والمستقبل إلا على هداها[١].

وثمة سؤال ـ ونحن نتحدث عن التراث والمستقبل ـ يفرض نفسه: هل إن التشبُّث بالتراث للاستهداء بمعطياته وحمايته من (التمزيق) أو (الرفض) يقودنا إلى الجمود، ويقعدنا عن التقدم والحركة. في عصر نحن بأمس الحاجة فيه إلى أن نوسع مدى خطواتنا، ونسارع في السير لكي نلحق أولئك الذين سبقونا؟ والجواب العادل هو: نعم.. ولا..

نعم.. إذا ما أتحنا لهذا (التشبُّث) أن ينقلب إلى نوع من الاندماج في الماضي والذوبان فيه، إلى هروب من الحاضر المليء بالتحديات، للارتماء بكسل في أمجاد الماضي وأضوائه.. إلى رفض الانتماء إلى (العصر)، والعودة الراجعة إلى الوراء لكي يحتوينا بسلبياته وإيجابياته على السواء.. إلى موقف غير علمي لا ينقد، ولا ينفي، ولا يرفض.. بل يستسلم كلية لنداءات الماضي ويغيب عن العيان.. إن التشبث بالتراث إذا ما جاوز حده

(١) انظر بالتفصيل: مقدمة كتاب (التفسير الإسلامي للتاريخ)، للمؤلف، (دار العلم للملايين) بيروت ـ ١٩٧٥م. وانظر كذلك: الفصل الثاني من الكتاب المعنون بـ (الواقعة التاريخية).

المعقول، تحول إلى سلاح خطير نشهره ضد أنفسنا في حلبة الصراع الرهيب مع أعدائنا ومهاجمينا. ولقد انتبه أعداؤنا أنفسهم إلى هذا الجانب السيِّئ من مسألة الموقف من التراث، فأرادوا أن يستخدموه على مستوى الفكر لكي يغيبونا عن الحاضر فتخلو لهم الساحات..

«وهكذا أصبح الفكر الإسلامي ـ كما يقول المفكر الجزائري مالك بن نبي ـ على أثر الصدمة الثقافية التي اجتاحته وما تسبب عنها من مركب نقص، ينحاز إلى معسكرين: **أحدهما**: يدعو لتمثل الفنون والعلوم والأشياء الغربية ـ حتى اللباس ـ **والآخر**: يحاول التغلب على مركب النقص بتناول حقنة اعتزاز يعلل بها النفس».

ويمضي مالك بن نبي إلى القول بأن التيار الثاني وجد منحدره الطبيعي في أدب الفخر والتمجيد الذي نشأ منذ القرن التاسع عشر على أثر ما نشره علماء مستشرقون أمثال دوزي عن الحضارة الإسلامية.. ثم يضرب مثلاً فيقول: «إننا عندما نتحدث إلى فقير، لا يجد ما يستر به الرمق اليوم عن الثروة الطائلة التي كانت لآبائه وأجداده، إنما نأتيه بنصيب من التسلية عن متاعبه بوسيلة مخدِّرة يعزل فكره مؤقتاً وضميره عن الشعور بها.. إننا قطعاً لا نشفيها. فكذلك لا نشفي أمراض مجتمع بذكر أمجاد ماضيه. ولا شك أن أولئك الماهرين في فن القصص قد قصوا للأجيال المسلمة في عهد ما بعد (الموحدين) قصة ألف ليلة وليلة، وتركوا بذلك أثر كل سحر، نشوة تخامر مستمعيهم حتى يناموا فتنغلق أجفانهم على صورة ساحرة لماضٍ مترف، ولكن سوف تستقيظ هذه الجماهير في الغد فتفتح أبصارها من جديد على مشهد الواقع القاسي الذي يحيط بها في وضعها الذي لا تغبط عليه اليوم. فالأدب الذي ينشد (عصر الأنوار) للحضارة الإسلامية يؤدي أولاً هذين الدورين: إنه أتاح ـ في مرحلة معينة ـ الجواب اللائق للتحدي الثقافي، وحافظ هكذا مع عوامل أخرى، على الشخصية الإسلامية، ولكنه

من ناحية أخرى صب في هذه الشخصية الإعجاب بالشيء الغريب، ولم يطبعها بما يطابق عصر الفعالية والميكانيك»[1].

الموقع الصحيح:

ولكن، ومن أجل ألّا يحتوينا هذا الموقف الخاطئ إزاء التعامل مع التراث، علينا أن نتحول إلى موقع أكثر علمية وإيجابية وانفتاحاً، موقع نتحمل فيه مسؤولية الرؤية الشاملة لمواضع الخطأ والصواب، والنقد البصير للحدود الدقيقة الفاصلة بين الأبيض والأسود، والانتقاء الواعي لكل ما من شأنه أن يشعل الأضواء في طريقنا صوب المستقبل، ويقدح شرارة الإيمان والثقة في نفوسنا من أجل أن نتحول من حالة السكون التي نعانيها إلى حالة حركية لا تدع الزمن والتراب وسائر المكونات الحضارية تفلت من بين أيدينا.

إن هذا ينقلنا إلى مسألة أخرى، غاية في الأهمية، وخطأ كبير شاع بين الناس، أو أشيع فيهم بشكل أدق، ذلك هو أن (الإسلام) نفسه لا يعدو أن يكون جزءاً من تراث أمتنا، ومساحة من مساحاته الممتدة في الزمان والمكان.. أو هو ـ على أحسن الأحوال ـ تراث هذه الأمة التي يتحتم علينا حمايته وصيانته، تماماً كما نحمي ونصون مكتبة موقوفة، أو مصحفاً خطيّاً جميلاً، أو منارة مائلة تهددها الأيام بالسقوط!! أو مقاماً عراقياً أصيلاً كاد يأتي عليه نغم الحجاز!.

ومن ثم فإن أقصى ما يطمح إليه إنسان هو ألّا يتجاوز تعاملنا (المعاصر) مع الإسلام حدود العلاقة بين أمة ما وما بين تراثها (الماضي): بحثاً وتنقيباً ودراسة وحماية وصيانة وإعجاباً وتقييماً. ومن ثم ـ كذلك ـ نقع في الشرك الذي نصبه لنا الفكر الاستعماري بجناحيه الإمبريالي والصهيوني، والذي

---

(١) إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، ص ١١-١٤.

يقودنا ـ عن علم أو دون علم ـ إلى الزاوية الضيقة التي نقطع فيها كل علاقاتنا العفوية الحيوية مع الإسلام، ونجمد كل اتصالاتنا الحركية بقيمه ونوقف سائر التزاماتنا بشعائره وأخلاقياته وآدابه. اللهم إلّا إذا كان تنفيذ الأخلاقيات والآداب وأداء الشعائر نفسها (فولكلوراً) وتراثاً!!

ليس الإسلام تراثاً:

ومن أجل ألا ننساق وراء هذا الموقف الخاطئ وتلك المؤامرة الخطيرة، في تصور أن الإسلام ومبادئه وقيمه مسائل تراثية، وأن علاقتنا به لا تتجاوز حدود العلاقة بين جماعة من الناس وبين تراثهم العريق، علينا أن ندرك حقيقتين أساسيتين في هذا المجال.

أولاها، وأكثرها أهمية، أن تراث أمتنا ليس الإسلام، وأن الإسلام ليس تراث أمتنا، بالشكل الرياضي الصارم كتطابق مثلثين تناظرت بعض زواياهما.. إنما يجيء التراث نتاج تفاعل بالسلب والإيجاب، مع الإسلام بالدرجة الأولى، ومع عدد آخر من المذاهب والأديان والمبادئ بالدرجة الثانية. فهو إذن، أي التراث، حشد من المعطيات تتمخض عن طبيعة التجربة التي أحدثتها مواقف آبائنا وأجدادنا من الإسلام.. معطيات شتى فيها الخطأ والصواب، والأسود والأبيض، والمتعرج والمستقيم، والظالم والعادل.

وهذا التنوع يجيء لأن الناس في تعاملهم مع الإسلام ليسوا سواء، والقرآن الكريم نفسه عبر عن هذه الحقيقة النفسية الاجتماعية ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾.. ومن ثم يبدو بيِّناً هذا الفارق الواضح بين الإسلام كفكرة وعقيدة ومنهاج وممارسات أخلاقية وشعائرية، وبين تراث أمة أثَّر هذا الإسلام في سلوكها وعطائها بدرجة أو أخرى، تأثيراً متغايراً كمّاً ونوعاً، كما يبدو بيِّناً خطأ أولئك الذين تصوروا الإسلام تراثاً أو عكسوا المقولة نفسها فتصوروا التراث إسلاماً!!

صنع الله وعمل الإنسان:

إن الإسلام عقيدة ومنهاج صاغتهما يد الله الحكيمة القديرة المريدة العالمة، ومنحتهما الصفة الدائمة التي تتجاوز حدود الزمان والمكان وتأطر واحاتهما الموقوتة الزائلة المتغيرة النسبية، لكي تكونا بمثابة استشراف كامل، مرن، يتسع لكل حالة، ويحتوي كل تجربة، بغض النظر عن موقعها في الزمان والمكان.

أما التراث فهو عطاء موقوت، وهو رغم تأثيراته الدائمة الممتدة في مسار الزمان والمكان، لن يصل بحال مرحلة الخلود المطلق، وتجاوز النسبيات التاريخية، كما أنه باعتباره حصيلة لقاء عملي واقعي بين الإنسان وبين العقيدة يجيء متأرجحاً بين النقص والكمال، بين الفجاجة والصرامة والتعصب، وبين النضج والمرونة والانفتاح والتوافق. وما أكثر ما قاد هذا التأرجح في التعبير، كثيراً من الناس إلى أن يجافوا روح الإسلام وبداهاته، وهم يحسبون أنهم يعبرون عن ضرورات هذا الدين.

إن الإسلام، بما أنه الدين (القيم) الذي ارتضاه الله تعالى لأمتنا العربية لكي تتحرك به إلى العالم كله، يبقى دوماً عقيدة وشريعة ومنهاج حركة للإنسان في كل زمان ومكان.. وما تفجر عن ذلك اللقاء المتغيِّر، المتنوع النسبي، بين آبائنا وأجدادنا، وبين دينهم القيم من معطيات، كان هو التراث الذي ضم في حناياه تجاربهم المضنية، وجهودهم الخلاقة وإبداعهم الدائب، ونتاجهم الدائم، وكان بمثابة المؤشر لما اعتمل في نفوسهم من مشاعر وعواطف وأحاسيس، ولما انتاب أذهانهم من رؤى وأحلام وأفكار وتصورات.. وهي جميعاً ـ من ألفها إلى يائها ـ مسائل تحتمل الخطأ والصواب.. وفرق وأي فرق بين هذا الذي يصنعه الإنسان الذي حدثنا عنه رسولنا عليه الصلاة والسلام بقوله: «إن كل بني آدم خطَّاء، وخير الخطائين

التوابون». وبين تلك العقيدة التي جاءت من: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾، والذي ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾..

في ختام جولته المركزة يتساءل الأستاذ فهمي هويدي: «لماذا ينسحب المفكر العربي من الحاضر والمستقبل؟» ويكون الجواب: إن ذلك يتم باختياره حيناً، وبالضغوط التي تمارس ضده حيناً آخر «فلا يبقى مفتوحاً أمامه سوى طريق واحد فقط هو الماضي».. وهنالك أيضاً تلك الإجازة الرسمية التي أعطاها العقل العربي نفسه «منذ أغلق باب الاجتهاد، بينما العقل مستمر في خدمة الإنسان الأوروبي منذ عصر النهضة».. وليس ثمة ما يضاف إلى هذه الأسباب..

فكثيرون من المحسوبين على (الأكاديمية) يجدون في تحقيق مخطوط قديم فرصة أكثر سهولة وضماناً ويسراً لتطمين مستقبلهم العلمي والوظيفي والاجتماعي، بدلاً من إعمال الذهن لردم سدود عاتية تنتصب، هنا وهناك، في مسالك حياتنا المعاصرة.. ولحفر قنوات جديدة في مستقبلنا القريب والبعيد..

وكثيرون ممن يجبنون عن مجابهة الضغوط الفوقية الراهنة لا يجدون للتعبير عن قدراتهم إلا الارتداد صوب الماضي، وتحولهم، كما يقول الفيلسوف الألماني إزوالد شبنغلر إلى «منظفي أتربة أكاديميين»!!

وكثيرون ممن يتكئون على معطيات عقول أجدادنا الكبيرة، لا يجدون في أنفسهم الدافع والمبرر لإعمال عقولهم (هم) ومجابهة تحديات القرن العشرين بحجة أن باب الاجتهاد قد أقفل.

لكن هؤلاء جميعاً، إذا أردنا الحق، ليسوا كل من هنالك.. فهناك الكثيرون، من رواد الفكر الإسلامي، وضعوا عقولهم المؤمنة في مجابهة فعالة مع مقتضيات عصرهم وتحدياته.. واجتهدوا.. كل وفق قدرته

وإمكانياته، وأجابوا على مئات الأسئلة، وأوجدوا حلولاً لمئات القضايا.. بل إنهم مضوا إلى ما هو أبعد من هذا؛ فاستشرفوا المستقبل وحدثونا عن الكثير مما قد يأتي به، لأن كتاب الله علمهم أن ينظروا دوماً صوب المستقبل: صيرورة الزمن المحتومة: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ...﴾.

أما الذين اختاروا أن يظلوا في مواقع الاتكالية والانتظار، متمنين وقوع المعجزة؛ فليظلوا حيث هم.. وأما قانون الكون فسيظل سارياً ـ كما يقول صاحب المقال ـ ذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.. وصدق الله العظيم...

لن يشرح جسمنا ونحن أحياء

قرأت في العدد (١٧٨) من مجلة (العربي) التي تصدر في الكويت مقال الأستاذ عبد الله أحمد حسين (السلطان عبد الحميد طاغية وليس خليفة)، ردّاً على ما كان الأستاذ الأفغاني قد نشره في العدد (١٦٩) من المجلة نفسها بعنوان (سبب خلع السلطان عبد الحميد).. فرأيت فيه تجاوزاً للعلم والحقيقة التاريخية في أكثر من موضع، أحببت أن أعرض لها بإيجاز بالغ.

إن قضية تاريخية كبيرة وحاسمة، لا زالت مؤثراتها تلعب دورها في حياتنا الراهنة، كقضية خلع السلطان عبد الحميد، ليست من البساطة والوضوح والسهولة بحيث يمكن إصدار الحكم النهائي عليها عبر مقال سريع يكتب في مجلة لكي ينزل بالسلطان إلى حضيض الجاسوسية والطغيان، ولكي يبرئ ساحة الحركات القومية جميعاً، دون تفريق بين تركيها وعربيها، وبين عميلها وأصيلها.

إن مأساة عدد كبير من مفكرينا أنهم يحسمون القضايا المصيرية في تاريخنا بمقال يكتب في ساعة أو ساعتين، ويرون في نتائج جهدهم العابر السريع هذا (حقّاً) لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وأنا لا أرجو هنا سوى أن أحيل القارئ وصاحب المقالة إلى بحث غني بالوثائق والنصوص القاطعة؛ كتبه الأستاذ محمد جلال كشك عن المسألة بعنوان (القومية والغزو الفكري) لكي يطلعوا بأنفسهم على جملة الحقائق التي لا يمكن بدونها إصدار أي حكم على الحركات القومية، تركية وعربية، أو

على السلطان عبد الحميد على حد سواء، وإننا بعد هذا بأمسِّ الحاجة إلى مزيد من البحوث الهادئة الرصينة التي تعتمد مناهج البحث الحديثة للوصول إلى أكبر قدر ممكن من أبعاد الواقعة التاريخية دونما صخب ولا ضجيج.

والذي يهمنا هنا هو (المطالب الصهيونية) التي يؤكد عدد كبير من الوثائق أن رفض السلطان لها كان من أكبر أسباب خلعه وإسقاطه، بينما يشكك صاحب المقال فيها أساساً، بعد تشكيكه برسالة السلطان، بعد خلعه، للشيخ أبي الشامات، فهو يقول: «.. إذن فالسلطان الذي لم يشر بشكل جدي إلى المطالب الصهيونية خلال حكمه، ولم يذع عنها شيئاً، ولم يفضح هذه المطالب ـ إن كانت فعلاً قدمت إليه ـ أراد من موضوع الرسالة أن يكون مجال دعاية له، وتعمَّد أن يضعها بيد رجل صوفي وشيخ طريقة لكي تذاع عن طريقه... إلخ».

إن الرجل يرفض (الوثيقة) استناداً إلى ترجيحات ظنية لا تتجاوز الأسطر المعدودات، بينما يعلمنا منهج البحث التاريخي العلمي: أن أي إثبات أو إنكار لوثيقة ما يحتم سلسلة طويلة معقدة من عمليات النقد الباطني والخارجي لن تتأتى بيسر وسهولة.

وأما عن (المطالب الصهيونية) فلا ندري موقف الأستاذ صاحب المقال من الوثائق التالية التي تزيد ما ذهب إليه الأستاذ الأفغاني قوة وتأكيداً:

كتب هرتزل ـ زعيم الحركة الصهيونية ـ إلى السيد يوسف ضياء الخالد: «لقد قلت لمسيو (زادوك كاهن): إن من الخير لليهود أن يتجهوا بأبصارهم إلى جهة أخرى. قد يحدث ذلك في اليوم الذي ندرك فيه أن تركية تأبى أن تدرك الميزات الضخمة التي تعرضها عليها حركتنا. لقد أوضحنا هدفنا علناً وبكل إخلاص وولاء، وأرسلت إلى صاحب الجلالة السلطان مقترحات عامة، ويسرني أن أعتقد أن صفاء ذهنه الشديد سيجعله يقبل الفكرة، من

حيث المبدأ، على أن تبحث تفاصيلها فيما بعد. وإذا رفض الفكرة فإننا سنبحث، وصدقني إذا قلت لك، إننا سنجد ما نحن في حاجة إليه.. ولكن سيكون معنى ذلك أن الفرصة الأخيرة التي تتاح أمام تركية لكي تنظم أوضاعها المالية، وتسترد قوتها الاقتصادية ستزول إلى الأبد.. إن الذي يقول لك هذا الكلام اليوم هو صديق مخلص لتركية.. وعليك أن تتذكره.... تيودور هرتزل»[(١)].

ماذا كانت ردود الفعل اليهودية إزاء رفض السلطان؟

أولاً:

«.. على الأثر ألَّف اليهود جمعية سرية أكثر أعضائها من اليهود المعروفين بالدونمة.. والدونمة كما هو معروف لقب يطلق على جماعة اليهود الذين هاجروا من إسبانية واستوطنوا (سلانيك). وهم طائفة يتظاهر أفرادها بالإسلام مع احتفاظهم باطناً بالدين اليهودي، ومنهم جاويد بك، وبعض كبار رجال الاتحاد والترقي.. فاتصلت (الجمعية) بأحرار الترك، ودخل أعضاؤها حزب الاتحاد والترقي، وتعاونوا مع كثير من شبان الضباط كأنور ونيازي.. وكانت لهم اليد الطولى في الانقلاب الذي خلع عبد الحميد.. ومما يؤسف له أن الأحرار لم يختاروا لتبليغ قرار الخلع إلى عبد الحميد غير عمانوئيل قره صو أفندي زعيم يهود سلانيك.. الذي سبق وأن طرده عبد الحميد..»[(٢)].

ثانياً:

«كما أن يهود الباطن الذين عرفوا بطائفة الدونمة منذ أن فضل المسيح الدجال في القرن السابع عشر: شبتاي زفي (١٦٢٦ ـ ١٦٧٦م) اعتناق

---

(١) محمد جلال كشك: القومية والغزو الفكري، ط ٢، ص٢٢٣-٢٢٤ (دار الإرشاد).

(٢) مجلة فلسطين البيروتية، رقم ٣١، عن مذكرات فخري البارودي.

الإسلام في الظاهر طمعاً بالامتيازات، وخوفاً من عقوبة الموت، قد لعبوا، على ما يبدو، دوراً بارزاً في انقلاب تركية الفتاة الذي جرى التخطيط له في عقر دارهم بمقاطعة سالونيكي، وانضم عدد منهم إلى جمعية الاتحاد والترقي فكانوا من الأعضاء البارزين فيها»(١).

«في سنة ١٩٠٠م دخل قره صو أفندي على السلطان بفضل الفريق عارف بك وأبلغه: أنه موفد من قبل الجمعية الصهيونية، وأنه قادم يطلب إليه إعطاء تلك الجمعية الأراضي الواقعة في المثلث القائم ما بين يافا وغزة والبحر الميت مقابل خمسة ملايين ليرة ذهبية عثمانية تدفعها الجمعية الصهيونية هدية إلى الخزينة السلطانية الخاصة. وعشرين مليوناً تقرضها الجمعية إلى الحكومة دون فائدة لمدة تعينها الحكومة.. فغضب السلطان وطرده من حضرته»(٢).

ثالثاً:

«لا نكير أن القادة الصهيونيين قد أدركوا أهمية الفرصة الاستثنائية المفتوحة أمام حركتهم في حال توصلهم إلى تبنيها من قبل الاستعماريين الأوروبيين الذين يستطيعون عن طريق قوتهم التوسعية أن يؤمنوا نجاحها بسرعة». ولقد عبر هرتزل عن ذلك ببساطة حين قال: «إذا أعطانا جلالة السلطان فلسطين فإننا نتولى حل مشاكل تركية المالية حلّاً تامّاً. أما بالنسبة إلى أوروبة فإننا سنشكل هناك قسماً من السور المواجه لروسية، فنكون طليعة حراس الحضارة بوجه البربرية. سنبقى كدولة حيادية على علاقة دائمة مع أوروبة كلها التي يتوجب عليها ضمان وجودنا...» ولقد ردَّ السلطان

(١) كشك: المرجع السابق، ص ٢٦٦-٢٦٧، عن أسعد رزوق: إسرائيل الكبرى (صادر عن منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث).

(٢) كشك: المرجع السابق، ص ٢٢٤.

عبد الحميد في حزيران عام ١٨٩٦م على هرتزل بالجواب المناسب التالي: «الإمبراطورية التركية لا تخصني، ولكنها تخص الشعب التركي، فلا أستطيع أن أوزع أي جزء منها. ليدخر اليهود ملياراتهم، وعندما تتقسم إمبراطوريتي فإنهم يستطيعون الحصول على فلسطين بدون بدل. إنما جثتنا فقط هي التي ستتقسَّم، ولن أرضى مطلقاً بأن يشرّح جسمنا ونحن أحياء»[١].

«إن الأدمغة الحقيقية في الحركة كانت يهودية أو يهودية ـ مسلمة. وقد جاءت مساعدتها المالية من الدونمة الأغنياء، ومن يهود سلانيك، ومن الرأسماليين العالميين أو شبه العالميين في فيينة وبودابست وبرلين، وربما في باريس ولندن أيضاً»[٢].

«إن الحقيقة البارزة في تكوُّن جمعية الاتحاد والترقي، أنها غير تركية وغير إسلامية، فمنذ تأسيسها لم يظهر بين زعمائها وقادتها عضو واحد من أصل تركي صافٍ»... «ولم يكن أحد من الناس يجرؤ أن يتنبَّأ أن هذه الفئة اليهودية المغمورة المعروفة بالدونمة ستلعب دوراً رئيسياً في ثورة كان لها نتائج خطيرة في مسيرة التاريخ»[٣].

وربما يجد الأستاذ عبد الله حسين في المقاطع الأخيرة جواباً عن سؤاله: «لماذا لم يطرح عبد الحميد موضوع الوطن القومي اليهودي عندما أخذت الاتصالات مجراها معه»؟.

رابعاً:

«لقد كان قره صو، وهو يهودي من سلانيك، أستاذاً أعظم في المحفل المعروف باسم (Macedonia Risorta) وينسب إليه بعض الفضل في أنه عني

---

(١) القضية الفلسطينية، ص٣٧-٣٨، (مؤسسة الدراسات الفلسطينية ١٩٦٨م).
(٢) كشك: المرجع السابق، ص٢٦٩-٢٧٠.
(٣) كشك: المرجع السابق، ص ٢٦٩ - ٢٧٠.

بفكرة استدعاء أعضاء تركية الفتاة للاجتماع في المحافل الماسونية، وأصبح فيما بعد بارزاً في جمعية الاتحاد والترقي، فكان أحد أعضاء الوفد الذي نقل إلى عبد الحميد نبأ خلعه سنة ١٩٠٩م، وكان عضواً في البرلمان التركي»[١].

وماذا حققت - الثورة - التي خلعت (الطاغية) للصهيونية من نتائج؟

أولاً:

«قامت المنظمة الصهيونية بتمويل صحيفة (التركي الفتي)، وعمد الصهيونيون إلى وضع رئاسة تحريرها بيد ناشر اسمه: جلال نوري بك أحد الوجهاء النافذين وابن وزير تركي. وحين انضم فلاديمير جابوتنسكي إلى مكتب الآستانة بناء على توصية من جاكو بسن، كانت شبكة الصحف التي يسيطر عليها الصهيونيون في منتصف عام ١٩٠٩م تضم، بالإضافة إلى الصحيفة المار ذكرها، ما يلي:

(١) مجلة أسبوعية بالفرنسية (الفجر)، يرأس تحريرها لوسيان سيوتو.

(٢) مجلة أسبوعية باللغة اليهودية الإسبانية، يرأس تحريرها دافيد الكانون.

(٣) مجلة أسبوعية بالعبرانية.

وقد تمكَّن جابوتنسكي من كسب تعاون عدد من الشخصيات اليهودية التركية البارزة لصالح العمل الصهيوني، وعلى رأس هؤلاء عضوان نافذان في البرلمان العثماني: نسيم روسو ونسيم مازلياح أفندي، وسبق لهما أن شاركا في تأسيس حركة تركية الفتاة»[٢].

---

(١) كشك: المرجع السابق، ص ٢٧٠-٢٧١، عن آرنست رامزور: تركية الفتاة وثورة ١٩٠٧م، ص٢٠٠-٢٠١.

(٢) كشك: المرجع السابق، ص٢٧٢-٢٧٣ عن أسعد رزوق: إسرائيل الكبرى (منظمة التحرير: مركز الأبحاث).

ثانياً:

«إن ثورة حزب الاتحاد والترقي في تركية في هذا العام جعلت اليهود يأملون بالعمل في الاستيلاء على فلسطين بحرية، لعلاقة الحكام الجدد بهم، ورأوا أن باستطاعة بن غوريون وأمثاله من المهاجرين سرّاً أخذ الجنسية التركية»[(١)].

ثالثاً:

«جاءت حكومة تضم ثلاثة وزراء يهود، وتخلو من عربي واحد، وكان وزير ماليتها اليهودي الأصل يجمع حوله في الوزارة طائفة من المستفيدين اليهود وسماسرة بيع الأراضي بما فيهم رئيس ديوانه، والحكومة تترك المجال لهجرة اليهود إلى فلسطين وشراء الأراضي»[(٢)].

❊ ❊ ❊

وغير هذه الوثائق والنصوص عشرات، لا يمكن، إذا ما رفضنا واحدة أو اثنتين أو ثلاثاً منها، أن نرفضها جميعاً.. هذا إذا ما أردنا أن نكون مؤرخين بحق!!

ولن يتسع المجال هنا لمناقشة الجانب الآخر من مقال الأستاذ عبد الله حسين والمتعلق بدوافع الحركات القومية في وطننا العربي، وأهدافها، ولقد أشبع الأستاذ جلال كشك هذه المسألة بحثاً في كتابه المذكور.. وكل الذي نود قوله هنا: إن أبناء العروبة الأصيلة ومنظماتها التي جاهدت الطغيان التركي والاستعمار الغربي معاً، لم تلعب دوراً يذكر في حركة الاتحاديين التي نفذت مطالب الصهيونية على حساب الأرض العربية، والتي رفعت

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٧٣.

(٢) المرجع السابق، ص٢٥٠ -٢٥١، عن توفيق برو: العرب والترك.

سلاح (التتريك) الرهيب بوجه العرب، لأن أمة مهما بلغت من التأخر، ومهما حاصرها الظلم والطغيان، لا يمكن أن تقتل نفسها مرتين!!

إن التفريق بين الحركتين القوميتين التركية والعربية ضروري..

وأشد منه ضرورة أن نكشف، بالتمحيص العلمي والبحث الجاد، عن الحركات العربية المشبوهة التي استغلت المحنة ووضعت يدها هنا وهناك لكي تتلقى السكين الذي يمزق ظهورنا، أن نفرزها عن حركات العروبة الأصيلة التي ما تخلَّت يوماً عن ارتباطها المصيري بعقيدة الإسلام وفكر الإسلام: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[1].




(١) الأنفال: ٣٧.

حول حقوق التأليف والنشر

حينما ظهر نظام النشر الحديث في أعقاب انتشار الطباعة في القرون الأخيرة، وأخذت مؤسسات إخراج الكتاب وتوزيعه تزداد عدداً وتخصصاً في بلاد العالم المتقدمة، وتزداد معها القوانين التي تنظم وترسم ضوابطه، كانت حركة الفقه الإسلامي في حالة تعثر وركود، كما هو معروف، تعثر في ملاحقة مستجدات الحياة وطرح الحلول الملائمة لها، وركود في مجابهة المسائل الحيوية التي تتحرك دائماً فلا تعرف للسكون معنى.. ومن ثم فلا نتوقع أن يدلي الفقه برأي إزاء المسألة التي كانت أمراً ثانوياً بالنسبة للكثير من المسائل الأكثر أهمية والتي التزم إزاءها جانب الصمت.

وهذا الأمر ينطبق أيضاً على موقف القوانين الوضعية في بلادنا من مسألة حقوق النشر والتأليف هذه؛ يقول الدكتور السيد أبو النجا رئيس مجلس إدارة دار المعارف في القاهرة في مقال له بمجلة العربي (عدد ١٤٨، مارس ١٩٧١م) عن الكتاب العربي في العصر الحديث: «لم تكن حقوق المؤلفين والمترجمين في العالم العربي منظمة بقوانين إلى عهد قريب، ولذلك كانت الأحكام في الملكية الأدبية تصدر استناداً إلى قواعد العدل، مع أن الأمم المتحدة أصدرت الإعلان العالمي لحقوق الإنسان في ١٠ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٤٨م، ونصت في مادته السابعة والعشرين على أن لكل فرد الحق في حماية المصالح المادية والأدبية المترتبة على إنتاجه العلمي أو الأدبي أو الفني.

ومعاهدة (برن) الدولية لحماية حقوق المؤلف أبرمت عام ١٨٨٦م، ثم عدلت عدة مرات كان آخرها في استوكهولم عام ١٩٦٧م. وهيئة اليونسكو نظمت عقد اتفاق دولي في جنيف في ٦ سبتمبر (ايلول) ١٩٥٢م عن حقوق التأليف.

وقد ظهر في يوليو (تموز) ١٩٦٧م اتجاه معارض لهذه الاتجاهات جميعاً؛ حين وضع المؤتمر الديبلوماسي الذي عقد في استوكهولم بروتوكولاً يحد من حقوق النشر لصالح الدول النامية، فيجيز إنقاص مدة حماية حق المؤلف، ويتوسع في الحالات التي يجوز فيها لهذه الدول أن تترجم وتنشر المصنفات الأجنبية مراعاة لاحتياجات التعليم والثقافة (دون إذن المؤلف والناشر).

وإلى أبعد من هذا يذهب تقي الدين النبهاني في كتابه (مقدمة الدستور الإسلامي) بصدد الكتاب الإسلامي، فلا يرى لصاحبه أي حق، ويبيح لأي ناشر، فرداً كان أم مؤسسة، أن ينشر الكتاب كما يشاء، من أجل ترويج الفكر الإسلامي وتحريره من كافة القيود؛ لكي يصل إلى أكبر قدر ممكن من الناس.. فهم شركاء في البحث عن الحقيقة، وفي وصولها إليهم أيضاً.. ولا أدري إن كان ثمة نصّ قاطع في كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام يبرر هذا الرأي.. فالمؤلف الإسلامي إنما يجيء نتاج جهد يبذله صاحبه، قلَّ أم كثر، ولا بد له ـ إذن ـ من أن يحظى بنصيب من المنفعة المترتبة عليه.. وللكاتب بعد هذا، ووفق منطوق الإسلام نفسه الذي يضع حدّاً أدنى ملزماً لكل مسألة، يحدد على ضوئه الحق والواجب، ثم يفتح الباب ـ بعد ذلك ـ على مصراعيه لمن أراد ـ اختياراً ـ أن يعطي أكثر ويأخذ أقل.. للكاتب بعد هذا أن يعلن عن تنازله عن حقه في المؤلف الذي يشاء، ويأذن لناشر ما، أو لكل ناشر، أن يسعى لنشر هذا الكتاب، دون مقابل، اللهم إلا ابتغاء ثواب الله، وما أعظمه من ثواب!!

وهكذا يجيء استفتاء (الشركة المتحدة للتوزيع)، واعتزامها إصدار كتيب يتضمن آراء الباحثين في هذا المجال، في محله تماماً.. فلعله.. من خلال عرض وجهات النظر المختلفة، تتبلور قيم ومفاهيم، وتتحدد نظم وقوانين تستهدي كتاب الله، وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، ومعطيات فقهنا الواسع المتشعب.. وتحدد للمؤلف والناشر والموزع طريقاً وسطاً لا يغبن فيه حق ولا يؤكل جهد.. وما تسعى إليه الشركة المتحدة كما تقول في استفتائها: «ليس تقرير قانون أو فرض عقوبة، وإنما ـ هي ـ بصدد جواب شرعي وفتوى دينية».

ولست أدَّعي علماً بالأدلة الفقهية التي يمكن اعتمادها في هذا المجال[1]، ولكن يمكن القول ـ ابتداء ـ بأن حق المؤلف المادي تؤيده مجموعة من الأدلة التي ترتب حق المنفعة على الجهد الذي يبذله الإنسان، شرط ألا يحل ما حرم الله أو يحرم ما أحله، كما أن مجموعة الأدلة المتعلقة بالميراث تجعل هذا الحق ينسحب على الورثة بعد وفاة المؤلف، رغم أن القوانين الدولية بهذا الصدد تجمد هذا الحق المادي بعد مرور خمسين عاماً على تمتع صاحبه به، مع الاحتفاظ بحقه الأدبي في نسبة مؤلفه إليه. ويبقى بعد ذلك، وكما مر قبل قليل، رغبة المؤلف في التنازل عن حقوقه المادية، أو جزء من حقوقه، للناشر، أو التساهل فيها، باتفاق محرر ومسبق بين الطرفين.

وما يقال عن حق المؤلف يمكن أن يقال عن حق الناشر، وحق الموزع كذلك، بصدد الطبعة الواحدة، أو الطبعات العديدة.. وحينذاك يكون أي تجاوز على هذا الحق المقرر، سواء من المؤلف أو من أية دار (أخرى) للنشر، سرقة وعدواناً، فلا ضرر ولا ضرار كما يقول رسولنا عليه الصلاة

---

(١) أغلب الظن أن الأخ الدكتور يوسف القرضاوي سيمنحنا من الأدلة ما فيه الكفاية إذا أتيح له أن يحظى بورقة الاستفتاء المذكور.

والسلام، والتجاوز على الحق المقرر لا يحتاج إلى سرد أدلته الشرعية، لأن الشريعة جاءت لحماية الحق، ومدافعة الأيدي التي تمتد إليه بسوء.. وقطعها إذا اقتضى الأمر!!

ومن أسف ألا تكون في بلادنا مراجع أو مؤسسات قضائية لمراقبة هذا النمط من العدوان، وفرض العقوبة عليه، الأمر الذي شجع قراصنة الكتب ـ كما يسميهم أبو النجا ـ إلى التمادي في عدوانهم وتهديد صناعة النشر كلها.. يقول الرجل في مقاله آنف الذكر: «اجتاحت العالم العربي في المدة الأخيرة موجة من التقليد تهدد صناعة النشر كلها. فبعد انتشار طباعة (الأفست) أصبح من السهل على أية مطبعة أن تصور الكتاب الذي لا تملكه بالكمرة، ثم تنقله على الزنك المحسس لتبدأ في طبعه على الفور بسرعة عشرة آلاف نسخة في الساعة للذي حملته الطابعة. والمقلد يمتاز هكذا على الناشر الأصلي بما يلي:

(١) ينتقي أحسن الكتب الرائجة، فهو يقامر دائماً على جواد رابح.

(٢) لا يدفع للمؤلف حق التأليف، وهو يدور عادة حول ٢٠٪ من ثمن الغلاف.

(٣) يوفِّر تكاليف الصف والرسم والتصوير والتنفيذ والتصحيح والإخراج.

(٤) يستفيد من السمعة القائمة للكتاب المقلد، وما أنفق عليه من إعلانات.

(٥) يبيع الكتاب بسعر أقل ـ للأسباب المتقدمة ـ ويمنح أصحاب المكتبات هامشاً أعلى من الربح فيضمن توزيعاً أكبر».

ويتساءل الدكتور أبو النجا: «هل يكون الحل أن تنضم الدول العربية جميعاً إلى معاهدة برن؟»؛ ويجيب: «إن اثنتين فقط من الدول العربية قد

انضمتا إلى هذه المعاهدة؛ وهما: لبنان وتونس. ولا شك، أن انضمام باقي الدول يعزز مكانة المؤلفين العرب، ويساعدهم على حفظ حقوقهم في الخارج. ولكن القوانين المحلية في كل بلد عربي تكفي على الأغلب لمحاربة التقليد، لولا أن الإثبات صعب؛ فليست العلة في عدم الانضمام لمعاهدة برن، وإنما في تقاعس الحكومات العربية عن مكافحة هذه القرصنة. ولعل الجامعة العربية تستطيع أن تفعل شيئاً جديّاً في هذا الصدد، بعد أن عقدت حلقة دراسية في سنة ١٩٦١م، وحلقة أخرى في سنة ١٩٦٩م، ولم يترتب عليهما أي تحسن في الموقف»[١].

تبقى مسألة حجم الحق المترتب على عملية النشر ومداه، سواء بين المؤلف أو المترجم والناشر، أو بين هذا والموزع.. وهو أمر نسبي يعتمد إلى حد كبير على قدرات المؤلف، ونوعية العمل المؤلف، وطريقة معالجته، كما تتحكم فيه أيضاً ضرورات الأسعار الأولية، ومنحنيات العرض والطلب.. ومع ذلك فإن معظم دور النشر، بما فيها (الشركة المتحدة) نفسها، ترسم حدوداً دنيا وعليا لهذا الحق، يتم الاتفاق عليها بين الأطراف، صعوداً وهبوطاً، من أجل أن يكون هذا الحق أقرب إلى الثبات، وبمنأى عن أن تعصف به العواصف.. كأن يكون حق المؤلف، عن الطبعة الأولى مثلاً، متراوحاً بين نسبتي ١٠٪ و١٥٪ من سعر الغلاف، وكأن تكون هناك حدود زمنية لإخراج الكتاب واقتسام الأرباح وانفراد الناشر بملكيته.

والمسألة، بعد هذا كله، اتفاق حر بين طرفين، والبيعان بالخيار كما يقول رسول الله ﷺ.

---

(١) نشر المقال المذكور في آذار سنة ١٩٧١م، ترى هل تم خلال السنين التي أعقبت ذلك أي تقدم في هذا المجال؟

وثمة مسألة أخيرة يجب أن تقال، وهي: أن عملية النشر، للأسباب التي بينا بعضها قبل قليل، يمكن أن تكون أكثر العمليات التعاقدية تقبُّلاً للتغيير والتبديل والعدوان على حق هذا الطرف أو ذاك.. ومهما شرع من قوانين، ومهما أقيم من مؤسسات قضائية وتنفيذية، فإن بمقدور هذا الطرف أو ذاك، أو أي طرف ثالث يدخل في اللحظة المناسبة لكي يسرق جهدهما، إن بمقدور هؤلاء جميعاً أن يمارسوا الغش والعدوان، وأن يستلوا أنفسهم من تبعات القوانين والقضاء، ومن عقوبات المؤسسات التنفيذية كما تستل الشعرة من العجين.. وما أكثر ما حدث هذا.. فمن يستطيع أن يثبت، بشكل قاطع، أبعاد الجرم وحجمه؟ ومن يستطيع أن يضع يديه على الجاني وهو متلبس بالجريمة كما يقولون؟!

وها هنا تبرز الضمانة الحقيقية التي يزرعها الإسلام ويرعى شجرتها في أعماق النفس وحنايا الضمير، لكي ما تلبث أن تورق وتمد ظلالها الوارفة على ساحات العلاقات والمعاملات جميعاً.. حيث لا غش ولا تزوير ولا سرقة ولا التفاف من وراء الظهور.. أو هذا ما يجب أن يكون..

وما أحوج صناعة النشر، بكافة أطرافها، إلى هذه الضمانة التي تفوق كل الضمانات.. فلا المادة السابعة والعشرون من إعلان حقوق الإنسان، ولا معاهدة برن أو اتفاق اليونسكو، بقادرة على أن تحمي حقوق المتعاقدين، في هذه الصناعة المشرعة الأبواب، كما تحميها وتصونها ضمانة التقوى.. حيث الإحساس الحقيقي المباشر بالرقابة.. والمسؤولية.. ويقظة الضمير..

جرح وتعديل في القرن العشرين

من المعروف أن أساليب ومناهج البحث العلمي لا تقتصر على جانب من جوانب العلوم الإنسانية دون الجوانب الأخرى؛ لأن لكل حقل من هذه العلوم أن يفيد من الخطوط العريضة لتلك المناهج والأساليب. وقد كان المسلمون الأوائل أسرع إلى إدراك هذه الحقيقة وتطبيقها على مساحات واسعة من نشاطاتهم في حقول العلوم الإنسانية. يبدو هذا واضحاً في مناهج علوم الحديث من جرح وتعديل ونقد ودراسة لتراجم أولئك الذين تناقلوا الحديث، وتطبيق ذلك كله في ميدان التاريخ والرواية التاريخية، سيما وأن اهتمام علماء المسلمين بجمع الحديث وبتمحيصه وما يرتبط بذلك من اهتمام بدراسة سيرة الرسول ﷺ وملامح شخصيته وظروف أقواله وأفعاله، كان بمثابة الأم التي أنجبت (علم التاريخ) لدى المسلمين. ولم ينفصل هذا الوليد عن أمه التي ظلت ترضعه وتحتضنه وتغذيه حتى استوى على سوقه، واستطاع أن يستقل بنفسه ويقدم مزيداً من العطاء والابتكار.

وكان المسلمون الأوائل يتحرَّجون من التسليم المطلق برواية ما من روايات التاريخ قبل أن يطلعوا على مسارها البشري، ويتفحصوا الرجال الذين تناقلوها: أمانتهم وصدقهم وعمق ذاكرتهم، وموضوعيتهم وعدم تحيزهم.. لذا كانت المؤلفات الأولى الكبيرة في تاريخنا الإسلامي كتاريخ الرسل والملوك للطبري، وطبقات ابن سعد وفتوح البلدان وأنساب الأشراف للبلاذري.. إلخ مليئة بهذه الأسانيد التي تقدم للباحث إحدى وسائل التقويم

العلمية للرواية التاريخية، تلك الرواية التي كانت تضم في حناياها مايصدق وما لا يصدق، ما ينسجم وطبيعة تكوين التاريخ الإسلامي وما ينأى عن هذا الانسجام. إلا أن إلحاقها بأسانيدها كان الوسيلة التي تعفي المؤرخ من المسؤولية وتضعها على عاتق الباحثين في كل جيل وزمان.

ولا ريب أن لأسلوب (علمي) كهذا قيمته العملية لأنها تمنح الباحث قدرة على تحليل مصدر الرواية التاريخية، وتقويم معطياته تقويماً موضوعيّاً، سيما وأن شخصية (الناقل) محدثاً أو راوياً، وسلوكه وأخلاقيته لها أهميتها في تفحص وإدراك مدى الموضوعية التي تحيط بالرواية وتحفظها من النوازع والعصبيات والأهواء. ومن ثم يبدو واضحاً أن ربط معطيات العلوم الإنسانية بأخلاقيات وانتماءات صاحبها يعتبر ميزة من أهم ميزات مناهج البحث الإسلامية، وابتكاراً رائعاً سبق إليه المسلمون وحققوا عن طريقه أسلوباً في النقد أضاف إلى أساليب النقد في العالم جانباً لم يعترف به النقد الغربي لحد الآن نظراً للانفصال الذي يعيشه الغربيون بين الواقع و(الأخلاق)، وللثنائية التي يمارسونها بين العلم والعمل.

وما أحرانا نحن أن نستعيد ثانية اعتماد هذا الأسلوب في حقول العلوم الإنسانية المعاصرة وبخاصة التاريخ والعقائد والسياسة والنفس والاجتماع والاقتصاد، من أجل أن نحظى بمزيد من الأضواء المسلطة على (قيمة) العمل التاريخي أو السياسي أو الاقتصادي. . . إلخ وتقويمه تقويماً موضوعياً، ووضعه في موضعه المناسب. وواضح أن كل ما يصدر عن المفكرين المعاصرين لا يحتاج إلى سند طبعاً؛ لأنه يصدر عن صاحبه مباشرة، في بحث أو كتاب. . والذي نعنيه؛ هو: فحص هذا الباحث أو المؤلف لمعرفة مدى أخلاقياته وسلوكه وانتماءاته، وعدم الاقتصار في التقويم على فحص البحث أو الكتاب فحسب. . وسوف نجد أن اعتماد هذا الأسلوب الأصيل الذي يقرره علم النفس، ذلك الذي يؤكد على أن أي

عمل فكري هو تعبير عن صاحبه، مهما ادعى صاحبه هذا من (عقلانية) و(موضوعية)، وتجرد عن تأثيرات (الوجدان) و(العاطفة) و(اللاشعور)، والفروق الخاصة والميول الأخلاقية، سوف يمنحنا وسيلة علمية ممتازة للكشف عن الجوانب (الذاتية) من ذلك (التعبير)، واطلاع الناقد على مساحة أوسع وأشمل في ميدان النقد؛ تتيح له أن يصدر حكماً أكثر موضوعية على ما ينقده ويقومه من أبحاث ومؤلفات.

إن الماركسية لا يمكن أن نجردها عن شخصية كارل ماركس ومكوناته الذاتية وأخلاقيته وانتماءاته ورواسبه اللاشعورية وتأثيراته البيئية.. وعلم النفس التحليلي لا يمكن أن نجرده عن شخصية فرويد ومكوناته الذاتية.. وهكذا بالنسبة لكل مفكر قدم عملاً في حقل ما من حقول العلوم الإنسانية، ولا يمكن أن يكون علماؤنا ومفكرونا أقل اندفاعاً وراء مؤثراتهم الذاتية وتكويناتهم الشخصية وانتماءاتهم الدينية أو السياسية.. على العكس، كثيراً ما نجد هؤلاء كشرقيين منهزمين مغلوبين على أمرهم، وكأناس يطغى عليهم الجانب الانفعالي حتى في أشد القضايا (موضوعية)، نجدهم ينساقون، شعروا أم لم يشعروا، أرادوا أم لم يريدوا، وراء نداءاتهم الخاصة ومصالحهم الذاتية، ومن ثم تجيء أبحاثهم وهي أشد درجة (في تعبيرها) عن شخصياتهم، ومن ثم بعداً، في معظم الأحيان، عن الموضوعية والحياد.. وهذا يحتم ـ ولا ريب ـ العودة إلى التزام أسلوب النقد الخارجي الذي مارسه آباؤنا وأجدادنا، وميزوا به وبغيره صحيح الروايات والأعمال من رديئها وسقيمها.

إن كتاباً كـ (نقد الفكر الديني) لصادق جلال العظم، يصدر في أعقاب هزيمة نكراء بوجه الصهيونية، كان سببها الرئيسي تخلينا عن التزاماتنا الدينية؛ قيادات وقواعد، وانتصار شعب ضئيل العدد، مشتت الجنسيات علينا، بسبب من عقيدته الدينية، هذا الكتاب الذي يصدر في فترة كان الحس الديني فيها يتحرك من جديد ليمارس دوره في تجميع جماهيرنا ومنحها

القدرة على المقاومة والانتصار. كتاباً كهذا لا يمكن أن نقوّمه دون أن نسلط الأضواء أولاً على شخصية صاحبه وانتماءاته ومصالحه الخاصة التي ربما كانت السبب الأول في دفعه إلى الوجود.. وما يقال عن (العظم) يمكن أن يقال عن معطيات (غالي شكري)، و(لويس عوض)، و(سلامة موسى) الذين انتموا ظاهرياً لليسار والماركسية، واحتفظوا سرّاً بركام عقود طويلة من الغلو الطائفي والحقد الذي لا يستقيم معه علم ولا يستبين طريق!!

وآخرون كثيرون من كتّابنا ومفكرينا، لا يحصيهم العد، تخرج كتبهم وأبحاثهم إلى الوجود وهي موسومة بميسم مؤثراتهم الشخصية التي لا تزول.. منهم من أثرت في معطياتهم مراكز دراساتهم في الغرب أو في الشرق، ومنهم من أثرت فيها طبيعة علاقاتهم الشخصية وصداقاتهم، وآخرون كان لاختيارهم زوجات فرنسيات أو أمريكيات تأثير عميق في أفكارهم لا يمحوه من أذهانهم مرور الأشهر وانصرام السنين.. وفئة رابعة منهم تستهويها إغراءات الذهب والفضة، ويغدون مستعدين لا لأن يبيعوا أفكارهم فحسب، بل شرفهم وشرف أمتهم أيضاً!!

وفئة خامسة يلوح لها بالمناصب والمراكز.. وسادسة تحتوشها شياطين الغرب في المراكز العلمية والجامعات، فتنفخ في روحها باسم الإنسانية والبناء الحر ما يشاء لها الحقد والهدم والهوى أن تنفخ في رؤوس وأفئدة هؤلاء المساكين، وفئة سابعة تسقطها شهواتها في حمأة الرذيلة، فلا يروق لها أن تكتب وتنشر عن الآفاق المضيئة من حياة الإنسان وفكر الإنسان وتاريخ الإنسان.

وهكذا، وهكذا... فئات وطوائف وأشخاص لا يحصيهم العد طرحوا في الأسواق آلافاً من الكتب والأبحاث التي مارست دورها الخطير في رسم مسارات فكرنا المعاصر وفي توجيهنا، وفي هزيمتنا أيضاً!

ولا يزالون يطرحون....

التخريب في المنعطفات

في مطلع الخمسينيات؛ حيث كانت أمتنا العربية تمر بمنعطف مصيري حاسم مخلفة وراءها عالم الاستعمار القديم والحربين العالميتين، مستقبلة عالماً جديداً تحفزت فيه القوى الكبرى لاستعمار من نوع جديد يعيدها إلى مواقعها الأولى بطرائق غير مباشرة... في ذلك الوقت، حيث كان الغزو الفكري والتدمير الأخلاقي واحداً من أكثر هذه الطرائق قدرة على الفعل والإنجاز..

في ذلك الوقت كان على مجموعة من الكتّاب والمفكرين أن تبرز إلى الساحة وأن تسلط عليها الأضواء.. وكان على عدد من الناشرين والمحررين والصحفيين أن يظهروا ليمارسوا عملاً مرسوماً... وأغلب الظن أن حلمي مراد، محرر السلسلة الأنيقة المعروفة بـ (كتابي) كان واحداً من هؤلاء..

تقلب صفحات أي عدد من أعداد (كتابي) فلا تجد فيه سوى فكر الغرب وأدب الغرب وفن الغرب... تفتش بين سطوره فلا تعايش إلّا أخلاق الغرب وقيم الغرب وتجارب الغرب ورجالات الغرب وحياة الغرب.. وما يبرز بين الحين والحين من حديث عن مسألة شرقية أو تلخيص لكتاب شرقي، أو ترجمة لعلم شرقي، إنما هو نوع من ذر الرماد في العيون.. أكثر من هذا، إنه يؤدي مهمة أخرى، ذلك أنه يضع في دائرة الضوء، معظم الأحيان، كل فكر شرقي وعلم شرقي، إلا أن يكون عربياً أو إسلامياً..

أداة من أدوات الغزو الفكري في تلك اللحظات المصيرية الحاسمة.. أليس كذلك؟!

أما ما مارسته تلك (السلسلة) على صعيد التدمير الأخلاقي الذي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالغزو الفكري، فيمهد له ويسوي أمامه الطريق.. فيكفي، للتثبت منه، أن نلقي نظرة على الكتب والأبحاث التي اختيرت بعناية لكي تلخص.. وعلى الافتتاحيات والتعقيبات المنبثة هنا وهناك... وعلى الصور والرسوم العارية المنتشرة من الغلاف إلى الغلاف...

ونحن لا نسعى هنا إلى القيام (بإحصائيات) تؤكد هذا الذي ذهبنا إليه.. فالسلسلة موجودة في أكثر المكتبات، وبمقدور القارئ أن يرجع إليها، بل أن يلقي نظرة سريعة على فهارس بعض أعدادها..

ولكننا سننقل شاهدين فحسب من معطيات المحرر نفسه عبر افتتاحياته لأعداد السلسلة؛ لكي نرى من خلال كلماته نفسها أي دور كان يقوم به في لحظات الانعطاف المصيري الحاسم تلك..

الشاهد الأول (الكتاب التاسع والعشرون، السنة الثالثة، تموز ١٩٥٤م):

«عزيزي القارئ: أريد اليوم أن أحدثك في أمرين يتصلان بهدفي الذي ألتزمه في (كتابي). أما الحديث الأول فهو بصدد رسالة تلقيتها من (قارئة) فاضلة تحتج فيها على ما نشرته في كتابي السابق من تلخيص لكتاب الشاعر الروماني القديم (أوفيد) في (فن الحب)، بدعوى أنه ينطوي على آراء (جريئة) تمتهن كرامة الحب، وتصور العلاقات بين الجنسين في صورة غير لائقة!

وردّي على هذا الرأي ـ وما قد يعنُّ للبعض من آراء مشابهة في مناسبات أخرى ـ أقول: إن ردي على هذا الرأي، من ناحية (الشكل) ـ دون دخول في الموضوع أو تفنيد لحججه ـ هو أن رسالة كتابي (وهدف

الثقافة الذهنية بوجه عام) ليست ولا ينبغي أن تكون من ضيق الأفق بحيث لا تقدم لك من الحياة غير جانبها المشرق المضيء وحده، دون جانبها الآخر (المعتم) الذي لا يخلو منه واقع. وإنما رسالة (كتابي) الثقافية التي نعتز بها أن لا يكون منبراً للوعظ والإرشاد ـ اللذين لهما مجالاتهما الأخرى المختصة ـ وإنما يكون منبراً للحرية الفكرية بأوسع معانيها، فيقدم لك تلخيصاً (أميناً) لشتى الاتجاهات والتيارات الذهنية، كما تعرضها أشهر الكتب العالمية ـ الرفيعة طبعاً دون الرخيصة أو المسفة ـ وذلك دون تقيد بما يرد فيها من آراء، لك أن تعتنق منها ما يروقك وتنبذ ما عداه.

أما أن أكون (وصيّاً) على عقلك، أو رقيباً على غذاء هذا العقل بحيث لا أقدم لك من ألوانه سوى الغذاء (المعقم) وحده، فهو مسلك ليس من شيمتي ولا مبدئي والحمد لله، لأنه ـ فضلاً عن رجعيته ـ يفترض فيك (طفولة) في العقل، ونقصاً في نضجه، أربأ بك أن تتصف بهما.. كما أنه مسلك يضعف من مناعتك في مقاومة أبسط (تيار هواء) ذهني أو جرثومة فكرية قد تباغتك عدواهما من أي مصدر آخر!!».

هل ثمة أكثر من الحياة الغربية تعرضاً لتيار الهواء؟ ومع ذلك فإنهم في أكثر من دولة ومؤسسة، يسعون إلى حماية أنفسهم من الدمار الخلقي والنفسي والاجتماعي الذي قد تسببه أمثال هذه الكتب (المنحلَّة).. وما أكثر الكتَّاب والأدباء المنحلين الذين سيقوا إلى المحاكمة، في هذه العاصمة أو تلك، فصودرت كتبهم وحكم عليهم بالسجن الطويل أو الغرامات الباهظة.. لماذا؟ وهم هناك يرتكسون في حضيض الممارسات السافلة، لا يتورعون عنها؟

لعل الفعل الخاطئ، أو الممارسة المرذولة، إذا حملتهما الكلمة المكتوبة أصبحا أكثر فتكاً وتدميراً لأنها ستمنحهما تبريراً فكرياً.. نوعاً من الشرعية النهائية التي تتجاوز النسبيات، وتجعل من الخطيئة فعلاً أخلاقياً!!

لعلها محاولة مستميتة لحماية الكلمة والفكر من السقوط إلى مدارك التبذُّل.. والبغاء..

إن الكلمة الزانية لهي أخطر بكثير من رجل يزني.. ها هنا رجل واحد يمارس الخطيئة ويحمل أوزارها في الدنيا والآخرة.. وهناك جيل كامل، بل أجيال من الناس تغرى بالزنى، ما دامت (الكلمة) قد بررته، وجملته، وارتفعت به إلى مصافِّ الفعل الأخلاقي المقبول..

ومهما يكن من أمر فإن الغربي، على المدى الذي ذهب إليه، يجد نفسه في حاجة إلى وصاية، أو رقابة.. هاهنا أو هناك.. وإلا ذهبت الحياة الغربية بدداً..

أفيكون الشرقي، والعربي المسلم على وجه الخصوص.. في غير ما حاجة إلى وصاية تحمية من أمثال الفجور الذي يعرضه (أوفيد)، شاعر الحضارة الرومانية المنحلة، في (فن الحب)، فيجيء صاحب (كتابي) لكي ينقل الوباء إلينا بكل جراثيمه المسمومة.. باسم حرية الفكر، والثقة بالعقل العربي؟!

فلنستمع إلى الشاهد الثاني (الكتاب الثلاثون، السنة الثالثة، أيلول ١٩٥٤م):

«.. إنَّ كل ما يعانيه شباب اليوم في مصر من قلق وحيرة وتخبط وفشل ويأس واندفاع أحمق إلى العنف والجريمة، إنما يتسرَّب إلى أعصابهم وعقولهم من داء واحد: الكبت الجنسي، والجهل الجنسي، والحرمان الجنسي!! الأمر الذي دفع بعض المشفقين على مصائر الشباب إلى المناداة بوجوب إعادة البغاء الرسمي، ولست ألومهم!

«لست ألومهم لأنني لا أفهم أن تغلق الدولة مثلاً جميع المطاعم

والمشارب العامة قبل أن تستوثق من أن حالة البلاد الاقتصادية والاجتماعية تسمح لكل مواطن بأن يكون له بيته الخاص الذي يتوفَّر فيه الطعام والشراب. وبغير هذا يكون شأن الدولة شأن من يدعو كل من لا بيت له إلى أن يسرق طعامه من الغير أو يخطفه!

تدعوه إلى هذا، ثم تعاقبه إن أطاع منطقها ففعل!

ولست أدري إلى متى سنظل نحن أهل الشرق نخفي رؤوسنا في الرمال كالنعام، ونجبن عن مجابهة الأمر الواقع كما ينبغي أن يواجه، كما واجهته دول الغرب، فسبقتنا في مضمار التقدم والإنتاج وسلامة الأجسام والأعصاب والعقول!

هذا الأمر الواقع الذي ينادينا كل يوم، بل يصرخ في أسماعنا بألف صوت وألف مثال، كي نتنبّه إلى مدلول هذه الحوادث والجرائم والفواجع التي تقع كل حين، ونرفع أبصارنا إلى التقويم لنرى في أي عصر نعيش!

والتقويم يقول لنا: إننا نعيش متأخرين عن عصرنا نصف قرن أو يزيد! فنحن ما نزال نجهل أو نكابر في تطبيق نظريات (فرويد) وأتباعه من أقطاب علم النفس التي أخذ بها العالم المتمدين منذ أوائل هذا القرن! وعلم النفس الذي نلقنه لشبابنا في المدارس، كما تلقن الببغاوات، وننكره عليهم في الحياة والواقع خارج جدران المدرسة، علم النفس هذا يقول: إن الجنس غريزة وحقيقة.. غريزة: أي حاجة فطرية ثابتة، لا يمكن استئصالها، تسعى إلى تحقيق هدف هو المحافظة على الحياة.. والجنس (حقيقة) لا يجدي في مقاومتها تجاهل أو ينكار أو استنكار، وهذه الحقيقة التي نغمض عنها أعيننا مكابرين، ومعاندين، هي السبب في أكثر مايعانيه شبابنا منا، وما نعانيه نحن منهم! هي السبب في سقوط نسبة كبيرة من طلبتنا في الامتحان، وهي نسبة فاحشة لا مثيل لها في أي بلد آخر. وهي السبب في إصابة نسبة كبيرة

أخرى منهم بحالات الانهيار العصبي، والأمراض العقلية والصدرية... وهي السبب في اندفاع ضعاف الأخلاق منهم في طريق الإجرام والخروج على القانون. وهي السبب في حالات القلق، والبلبلة، والحيرة، والتخبط، والخجل الزائد الذي يعوق نمو الشخصية... بل هي السبب في الفشل الذي يمنى به الكثيرون من شبابنا في مستهلِّ حياتهم العملية.

ومع ذلك فنحن في مصر ـ حكومة وشعباً ـ ما نزال نتجاهل هذه الحقيقة الكبرى، بل هذه المشكلة الرئيسية التي تتفرع عنها جميع مشكلات الشباب الأخرى، والتي يجب أن تواجه وتعالج بروح العصر.. ولكن أي عصر؟ عصر الذرة لا عصر الجاهلية!

إنني أدعو قادة ثورتنا الأبطال، الذين حطموا أعداء مصر واحداً بعد الآخر، فخلصونا من: الطغيان، والفساد، والإقطاع، ثم الاحتلال... أن يوجِّهوا ضربتهم التالية إلى قلب مجتمعنا الذي ينخره سوس النفاق، والجهل، والرجعية، فيحرروه منها جميعاً، وينقذوا معنوية هذه الأجيال المتعاقبة من الشباب، الذين هم عدة الثورة في الإنتاج والإصلاح والعمل من أجل مصر!

... إنها مشكلة، بل مشكلة المشكلات، وقد تسألني: وما هو حلها؟ أهو في إعادة البغاء؟ وأنا لم أقل هذا.. فالمشكلة أوسع وأضخم وأعمّ من ذلك بكثير، وهي لا تحل في يوم وليلة.. وإنما هي تتطلب تطوراً في عقليتنا يناسب تطور الزمن.. تطوراً يحمي أعصابنا من أن تصدمها كل صباح أنباء الصحف عن جرائم الشبان والمراهقين، والتعرض للسيدات في الطرقات والمركبات، والشذوذ الجنسي، واقتياد الشبان والفتيات إلى أقسام البوليس بتهمة الفعل العلني الفاضح.. إلى آخره.. ويكفينا في هذا المجال أن تزخر الصحف بأنباء جرائم (هتك العرض) و(غسل العار) والوفيات بالإجهاض.. فإن محصولها للصحف وعشاق الفضائح من القراء ليس بقليل.

ومرة أخرى أكرر: إنها مشكلة، وحلُّها ليس باليسير، ولكن لا أقل من أن نحاول السعي إلى حلها على هدى ما فعلته الدول الأخرى في هذا الشأن، وكيف يعيش شبابها، ومدى الحرية التي تكفلها لهم الدولة، والمجتمع.. ونظرة الشعوب إلى مشكلة الجنس.. إلخ.

فإلى هذه النواحي كلها نوجه أنظار حكومتنا الرشيدة لمناسبة ما قيل عن قرب تأليف (مجلس أعلى لشؤون الشباب).. على أن (كتابي) لن يغفل ـ مع ذلك - الدور الذي يستطيع أن يساهم به في هذا المجال، سواء من أبحاثه الخاصة، ومن آراء قرائه الأعزاء..».

وحلمي مراد، هاهنا، يجهل، أو يتجاهل، أكثر من حقيقة، لهذا السبب أو ذاك..

يجهل أو يتجاهل أن أكثريات كبيرة من الغربيين، ومن شبابهم بالذات، تفقد يوماً بعد يوم سلامة أجسامها وأعصابها وعقولها، رغم ما منحته من حرية جنسية إلى آخر المدى، ورغم ما مارسته فعلاً في مدى هذه الحرية المفتوحة.. ثم ها هي ذي تنعطف باتجاه أنماط من الشذوذ الجنسي تقرها عليه مؤسساتها التشريعية، وحتى الكنسية (هنالك ـ على سبيل المثال ـ خبر عن استعداد إحدى الكنائس الإنكليزية للإشراف على عقود الزواج النمطي، أي: زواج الرجل بالرجل، نشرته مجلة السنداي ميرور في ٢١ مايس ١٩٧٨م).. وتخرج من هذا الشذوذ إلى شذوذ آخر.. وهي تزداد عبر دربها الهابط ذاك فقداناً لصحتها الجسدية والنفسية على السواء.. تؤكد هذا أجهزة الإحصاء الغربي ومراكز دراساته وبحوثه الاجتماعية، ويقره زعماء الاجتماع وكبار الساسة.. وما خطابا (خروتشوف) و (كندي) في مطلع الستينيات ببعيدين عنا..

قد يقول قائل: إن هذه أحداث وقعت بعد مضي سنوات على تحليل (حلمي مراد) إياه.. ولكن من الجهل أن نظن أن الممارسات الاجتماعية

الخاطئة تنفجر على حين غفلة. . إن بدايات الظاهرة وأسبابها تمتد إلى عقود عديدة، بل إلى أكثر من قرن. . فإن لم يكن الرجل قد تلمَّسها فهو جاهل ليس له حق الإسهام في حل مشاكلنا الاجتماعية، وإن يكن قد تلمسها وتجاهلها فهو كاذب دجّال لا قيمة لكلماته. .

وحلمي مراد، حلّاً للمشكلة، يدعو إلى الاقتداء بالتجربة الغربية، حذو النعل بالنعل، وهاهي ذي التجربة الغربية ـ في نطاق الجنس ـ أمام أعيننا. . إنكم تشاهدون ثمارها المرة كالعلقم في الشوارع، والأزقة، والنوادي، ومؤسسات الترفيه. . وفي المواخير. . ثم في معطيات الآداب والفنون التي تعكس المأساة بشكل يقنع، حتى المتخلفين عقلياً، بأن القوم هناك يعانون أكثر مما نعاني. .

وحلمي مراد يتهمنا بأننا نعيش متأخرين عن عصرنا بنصف قرن أو يزيد، وإننا لا زلنا نجهل أو نكابر في تطبيق نظريات (فرويد) وأتباعه من أقطاب علم النفس التي أخذ بها العالم المتمدن منذ أوائل القرن. .

وهو يجهل، أو يتجاهل، أن أوائل هذا القرن هي غير منتصفه، وأن منتصفه هو غير نهاياته. . فهاهي نظريات فرويد (اليهودي) تتهافت يوماً بعد يوم. . وبأيدي من؟ بأيدي عدد من تلامذة مدرسة التحليل النفسي عينها. . وتبرز إلى حيِّز الوجود نظريات ونظريات تختلف في بنيتها كليّاً أو جزئيّاً عن نظرية (فرويد)، وتتجه اتجاهاً آخر. . وهي نظريات قد تخطئ وقد تصيب، كما يعترف العلماء الكبار أنفسهم لا الصحافيون والكتاب الصغار الذين يقتاتون على موائدهم. . ونظرة سريعة إلى كتاب كاريل (الإنسان ذلك المجهول)، وكتاب سوليفان (حدود العلم) تبين لنا مدى تفاهة أولئك الذين يتشنّجون على هذه النظرية أو تلك؛ معتقدين أنها الحق المطلق، وأن ماوراءها الباطل. . بينما هي في أحسن الأحوال (محاولة) للوصول إلى الحقيقة التي يصعب الوصول إليها. . مجرد محاولة!!

وحلمي مراد يجهل، أو يتجاهل، أن المشكلة الجنسية، أو الدافع الجنسي بشكل أدق، ما دام ثابتاً في كيان البشر، فإن حلّه يبقى مسألة ثابتة هي الأخرى.. ليس ثمة ـ كما يتوهم ـ حلّاً للمشكلة ينسجم مع (عصر الذرة لا عصر الجاهلية).. حل المشكلة الأبدي هو كما جاءت به الأديان، لا نظم الطواغيت وأرباب البطون والفروج من المشرعين.. لقاء إرادي بين الرجل والمرأة، يشهد عليه المجتمع، ويباركه الله، ويحمي ثماره من الهجانة والاختلاط، وحرمه من العدوان والخيانة والشهوات...

وهو ـ أي: حلمي مراد ـ يلمح ويشير إلى كل حل للمشكلة الجنسية في مصر، والشرق العربي عموماً، اللهم إلا هذا الحل الطبيعي المبارك: الزواج، شرط أن تخفف عوائقه تدريجيّاً حتى تصير إلى زوال، وشرط أن تتزايد حوافزه، ومغرياته، حتى يصبح ميسوراً... كما أراد الله ورسوله أن يكون...

يلمح بضرورة إعادة البغاء، ويشير إلى أن الحل النهائي الشامل لا يتحقق إلا بأن نجعل من حياتنا الاجتماعية، في ميدان الجنس، نسخة منقولة بكليتها وتفاصيلها عن الغرب!! وهو يعرف جيداً ما الذي يعانيه الغرب هاهنا في صميم تجربته الاجتماعية..

وهو ـ على طريقة أدعياء التقدمية من أدوات الغزو الفكري ـ يستعدي السلطة ويحض قادتها على ضرورة تنفيذ برنامج التغريب الاجتماعي هذا كجزء من برنامجهم في القضاء على الطغيان والفساد والإقطاع من أجل مصر!! الأمر الذي كثيراً ما كان ينطلي على قادة الثورات وصانعي الانقلابات.. أو بالأحرى، يبرر تحركهم بالاتجاه نفسه، والسبب معروف!!

ولكن.. ألم أقل لكم إنه الدور المرسوم الذي جاء الرجل ليلعبه كواحد من عشرات بل مئات المتآمرين على مسرح حياتنا المرهقة، الممزقة، المليئة

بالتناقضات.. وهي تسعى إلى التوحُّد والالتئام والمسح على جروح الاستعمار القديم.. فإذا بطلائع الاستعمار الحديث تخرج بهذه الأدوات لتنفيذ غزوها الفكري وتدميرها الأخلاقي.. فلا تتيح لعربي أن يخلو إلى نفسه لكي يتدبَّر وجوده ويتحرك، بوعي وأمانة، صوب مصيره..؟!

من أجل هذا كله لن ندهش إذا ماعرفنا كيف انتشرت في بعض البلاد العربية (منذ السنة الثانية لصدور السلسلة) شائعات تتهم صاحبها بالصهيونية وبانتمائه اليهودي. وهو يشير إلى ذلك في افتتاحية العدد التاسع عشر (السنة الثانية، أيلول ١٩٥٣م) فيقول: «.. ومن هنا تفتق ذهنهم الشيطاني عن حملة مفتراة سخروا لنشرها إحدى الصحف السورية (العربية) ـ مع الأسف الشديد ـ كما نشروها شفهياً بوسائلهم الخاصة في جميع الأوساط، زاعمين فيها أنني يهودي، وصهيوني (كذا)، إلى آخر هذه الأكاذيب الزائفة التي أردفوها بمطالبة الحكومات العربية الشقيقة بمنع دخول (كتابي) في بلادها، ومطالبة الشعوب العربية بمقاطعة الكتاب، إذا لم تمنعه الحكومات!!».

وهو، من أجل دفع هذه الشبهة وفكّ الحصار، يلجأ إلى الأمانة العامة لجامعة الدول العربية لكي تصدر إثباتاً بجنسيته المصرية وديانته النصرانية، وينشر صورة الإثبات بالزنكوغراف في الصفحة المقابلة لافتتاحيته تلك، تحت عنوان «صورة زنكوغرافية لشهادة أمانة الجامعة العربية، التي تكذب افتراءات الكائدين»!!

والحق أن الجماهير العربية المسلمة كانت، وستظل، تحمل حسها السليم ورؤيتها النافذة التي تعرف من خلالها أصدقاءها من أعدائها.. فتفرز هؤلاء من هؤلاء، وتميز هؤلاء عن هؤلاء.. ومن خلال معطيات رجل كحلمي مراد أصدرت الجماهير حكمها عليه، وأدانته بممارسة النشاط الصهيوني.. وسواء صحت دعوته بألّا علاقة له بالصهيونية كما صحت

بالنسبة لتبعيته الدينية أم لم تصح، فإن المهم ليس الانتماء الشكلي، إنما الفعل والممارسة والاتجاه.. تلك التي تلتقي في نهاية الأمر، وتصب، في مجرى الصهيونية وحليفها الاستعمار الجديد..

وما أكثر الأتباع والمريدين، من غير اليهود، ممن سخروا أنفسهم أدوات لخدمة أهداف هذين الخصمين، لا أظن أن ثمة حاجة ملحة لذكر أسمائهم ومعطياتهم، فهم معروفون على أية حال..

ترى.. هل أخطأ إحساس الجماهير؟!

على هامش
المؤتمر الثالث للسيرة

في المؤتمر الثالث للسيرة والسنة النبوية الشريفة المنعقد في الدوحة في خريف عام ١٩٧٩م وجه محررو الصحف والمجلات، أسئلة شتى لعدد من المشاركين بغية الإجابة عليها بإيجاز.. وكان أن تلقيت هذه الأسئلة..

السؤال الأول: هل يستطيع المؤتمر أن يلقي أضواء كاشفة على التاريخ الإسلامي كله، وما علاقته بهذا التاريخ؟

الجواب: بكل تأكيد.. وقد حقق ذلك بالفعل.. بل امتدت رؤيته إلى المستقبل أيضاً.. فهو في معالجاته للمواضيع المطروحة، وفي معطياته ونتائجه على السواء، قد ألقى الضوء على حركة التاريخ الإسلامي ماضياً وحاضراً ومستقبلاً بما أن سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام وسنته الشريفة هي المنطلق وحجر الأساس، وهي المقياس النهائي الحاسم الذي تقاس به كل حركة ويوزن به كل عطاء.. هذا إلى أن الأبحاث المبكرة في السيرة والسنة في قرون الإسلام الأولى هي التي صنعت علم التاريخ الإسلامي نفسه، وكانت بمثابة الأم التي تمخض عنها ذلك العلم الذي أخذ يزداد عطاء بمرور الأيام.

السؤال الثاني: ماهي توقُّعاتك للقرن القادم.. بالأحرى آمالك لما يمكن أن يتمخَّض عنه هذا القرن؟

الجواب: أريد أن أقول باختصار: إن مرور الزمن يمنحنا رصيداً متزايداً مما يمكن أن نسميه تراكم الخبرة، فكل قرن ينضاف إلى مسيرة الإسلام الدائمة ـ باذن الله ـ يمنح المسيرة قدرة أكثر على الفهم، وتجاوزاً أبعد للعقبات والمشاكل، واستجابة أعمق للمصاعب والتحديات.. فلو أمكن مسلمو القرن القادم أن يفيدوا من تجارب القرون الماضية وبخاصة القرن الرابع عشر.. بآماله وآلامه.. بأفراحه وأحزانه.. بانتصاراته ونكباته.. بتوحده وتمزقه.. بجراحه وسلامته.. بكل ماتضمنه من الأبيض والأسود.. لقدروا على تحقيق خطوات أبعد مدى باتجاه آمالهم الكبيرة في التحرر والتوحُّد والانطلاق، ولتمكنوا من تجاوز الكثير من الكمائن التي نصبها وينصبها في طريقهم ـ دوماً ـ أعداء كثيرون قد يرون وقد لا يرون..

إننا نتفاءل تماماً بمقدم قرن جديد.. إننا في قرننا المنصرم، رغم ما تجرعناه من نكبات ومآسٍ وانكسارات، قد حققنا الكثير الكثير: وعياً حركياً، وتأصيلاً للذات الإسلامية.. فكم يا ترى سيتحقق عبر القرن الجديد؟

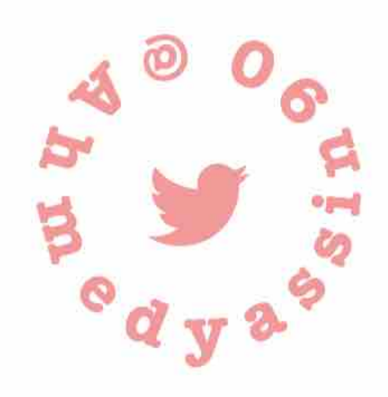
السؤال الثالث: ماذا تقول معطيات التفسير الإسلامي للتاريخ إزاء قرن يمضي وقرن يجيء؟

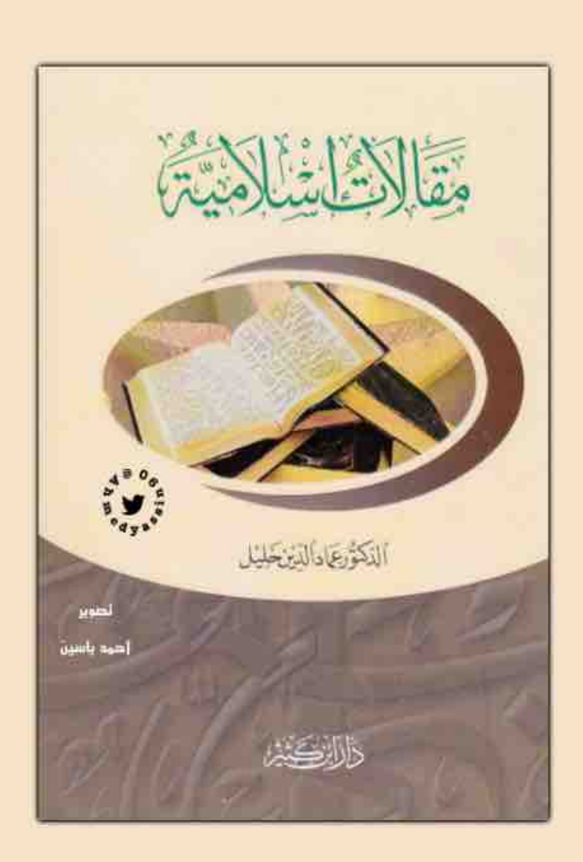
الجواب: لا تقول بأكثر، وأعمق، مما تقوله كلمات الله: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨ ـ ١٤١].




فهرس الموضوعات


تم بحمد الله


@Ahmedyassin90



مقالات إسلامية
الدكتور عماد الدين خليل
دار ابن كثير
تصوير
أحمد ياسين